أجاثا كريستي

جريمة عيد الميلاد

دار النجمة للنشر والتوزيع

جريمة عيد الميلاد

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

جريمة عيد الميلاد

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأوّل
٢٢ كانون الأوّل (ديسمبر)

-١-

رفع ستيفن ياقة سُترته وهو يتمشّى على رصيف المحطة، وكان كل شيء قذراً غارقاً في الدخان فهمس لنفسه باستياء قائلاً: يا لها من بلاد كريهة ومدينة ممقوتة!

كان سحر لندن الذي بهره في البداية قد تبخّر، فأخذ يفكّر في جنوب إفريقيا حيث الشمس الساطعة والسماء الزرقاء، ثم عاد يفكّر وقال لنفسه: ليتني لم أحضر!

ولكنه عاد يُقنع نفسه بأنه جاء لأداء مهمّة كان يخطّط لها منذ سنوات ولا بدّ من إتمامها، ولكنه عاد يسأل نفسه بعد قليل قائلاً: لماذا؟ هل يستحقّ الأمر كل هذا العناء؟ لماذا أفكّر في الماضي؟

ولكنه سرعان ما تذكّر أنه في الأربعين ولا بدّ له من

إتمام المهمّة التي جاء إلى إنكلترا من أجلها، كما أنه لم تبقَ سوى ثلاثة أيام على عيد الميلاد.

وصعد إلى القطار وتجوّل بين جميع عربات الدرجة الثالثة فوجد كل المقاعد مشغولة، ثم أخذ يتأمّل وجوه المسافرين باستياء فرآها كلّها وجوهاً متشابهة كريهة، ولكنه حبس أنفاسه فجأة عندما وقع بصره على فتاة تختلف عن الآخرين. لقد كان في عينيها السوادوين الحزينتين كبرياء رغم أنها ترتدي ثياباً رخيصة، ثم همس لنفسه قائلاً: يا لها من فتاة جميلة! تُرى ماذا تفعل هذه الحسناء في بلاد الضباب والبرد؟! يجب أن أعلم مَن تكون وإلى أين تذهب، لا بدّ أن أعلم.

-٢-

جلسَت بيلار بجوار النافذة تفكّر في أولئك الإنكليز غريبي الأطوار، ثم ازدادت دقّات قلبها سرعة عندما بدأ القطار يتحرّك. هل ستجري الأمور على ما يرام؟ وهل ستتمكّن من أداء المهمّة التي جاءت من أجلها؟ ثم ارتفعت شفتها لتبدو على فمها قسوة لا تتناسب مع جمالها فبدَت كقطّة قاسية لا تعرف الشفقة، ثم نظرت بفضول حولها فرأت الشاب الوسيم الذي يقف في الممرّ، فأعجبها وجهه البرونزي وقامته الممشوقة وكتفاه العريضتان، ثم همست لنفسها قائلة: لا أظن أن يكون

هذا الشاب إنكليزياً فهو مملوء بالحيوية. لعله أمريكيّ.

ثم أعلن أحد خدم القطار عن تقديم وجبة الغداء فخلَت مقاعد المقصورة التي تجلس فيها الفتاة، وارتمى ستيفن على المقعد المواجه لها وسألها عمّا إذا كانت تريد النافذة مغلَقة أم لا فلم تُجِب، ثم عاد ستيفن يقول: القطار مشغول بأكمله.

فقالت بيلار: أجل؛ فالناس يفرّون من لندن لأن جوّها قاتم.

فابتسم ستيفن وهو يقول: لندن مكان كريه، أليس كذلك؟

- بلى، هي بالفعل مكان كريه. أنا لا أحبّها.

- هذا هو نفس شعوري.

فقالت بيلار: ألستَ إنكليزياً؟

- بلى، أنا إنكليزي، ولكنني قادم من جنوب إفريقيا. هل أنتِ قادمة من الخارج أيضاً؟

- نعم، أنا قادمة من إسبانيا.

فقال ستيفن باهتمام: إذن أنتِ إسبانية، أليس كذلك؟

فقالت بيلار: أنا نصف إسبانية؛ فأمّي إنكليزية وهذا

سبب تحدّثي الإنكليزية بطلاقة.

ثم سألها عن رأيها في الحرب وهل هي مع الحكومة أم مع الجنرال فرانكو، فأجابت بأن الحرب لم تقترب من المكان الذي تقيم فيه، ثم أضافت قائلة: لقد رأيتُ الكثير من الدمار خلال سفري، فقد سقطَت قنبلة على السيارة التي كنتُ أستقلّها فقُتل السائق. لقد كان شيئاً مثيراً!

فابتسم ستيفن وهو يقول: أهكذا نظرتكِ للأمر؟

- لقد شعرتُ بالاستياء كذلك؛ فقد كنتُ أرغب في مواصلة السفر.

- ألم تنزعجي لمقتل السائق؟

فأجابت بيلار بهدوء: لم أنزعج؛ فكل إنسان مصيره الموت، أليس كذلك؟

فسألها ستيفن باسماً: هل تغفرين لأعدائك يا آنسة؟

فهزّت رأسها قائلة: ليس لي أعداء، ولو كان لي أعداء... وصمتت لحظة ثم تابعت كلامها قائلة: لو كان لي عدوّ أو أن أحداً كان يكرهني لقطعتُ رقبته هكذا.

ثم أتبعت كلامها بإشارة من يدها فوق رقبتها، فقال ستيفن مرتاعاً: أنتِ شابّة متعطّشة للدماء!

- وماذا تفعل أنت بعدوّك؟

فضحك ستيفن وهو يقول: لا أدري.

قالت بيلار: ولكنك تعرف بالتأكيد.

ثم غيّر ستيفن دفّة الحديث قائلاً: لماذا أتيتِ إلى إنكلترا؟

- جئتُ لأعيش مع أقاربي، أقاربي الإنكليز. هل الحياة لطيفة في جنوب إفريقيا؟

فمضى ستيفن يحدّثها بحماسة عن الحياة في جنوب إفريقيا فأخذت بيلار تصغي إليه باهتمام، ثم غادر ستيفن مقعده عندما عاد الركّاب ووقف في الطُّرقة، ثم وقعَت عيناه على حقيبة بيلار فقرأ باهتمام ما كان مكتوباً عليها: «الآنسة بيلار أسترافادوس. قصر غورستون. لونغديل، أديلسفيلد».

فأدار رأسه نحو الفتاة بدهشة وارتياب.

-٣-

في قصر غورستون كان ألفريد لي وزوجته ليديا جالسَين في غرفة الجلوس يتناقشان في خُططهما بشأن عيد الميلاد. وكان ألفريد رجلاً متوسط القامة في أواسط العمر، وليديا نحيفة بشكل مُلفت للنظر خفيفة الحركة ممتلئة بالحيوية والنشاط، ولم يكن وجهها جميلاً ولكنه

متميّز وصوتها عذب. قال ألفريد: أبي يصرّ ولا يوجد حلّ آخر.

- هل يجب عليك أن تستسلم دائماً لرغباته؟

- هو رجل عجوز يا عزيزتي.

- أعرف ذلك، ولكن يجب أن يكون لك رأيك الخاص في بعض الأحيان.

- ماذا تعنين يا ليديا؟

فهزّت كتفيها وهي تقول: أبوك رجل متسلّط.

- إنه رجل عجوز.

- سوف يتقدّم به العمر ويزداد تسلّطه، فهو يرسم لنا طريقة حياتنا ولا نستطيع أن نستقلّ برأينا.

- لا تنسَي أنه يعاملنا بكرم زائد ولم يبخل علينا بشيء قطّ. هل نسيتِ أنه أعطانا سيارة جديدة في الأسبوع الماضي؟

فقالت ليديا بضيق: إنه من الناحية المالية رجل كريم، ولكنه يريد منا أن نكون عبيداً في مقابل ذلك!

- عبيد؟!

- نعم، هذا ما قلتُه. أنت عبده يا ألفريد؛ فنحن إذا قرّرنا السّفر وقال هو «لا» فأنت تستسلم دون معارضة.

نحن لا نتمتّع بأيّ استقلال.

- هذا نُكران للجميل يا ليديا، ثم إن أبي يحبك.

- ولكنني لا أشعر بأدنى حبّ نحوه، وهو يعرف هذا جيداً، وأعتقد أنه يستغلّ حبّك له بطريقة استبدادية. كان ينبغي أن تعارضه منذ سنوات طويلة.

فقال ألفريد بحدّة: كفى! لا أريد أن أسمع المزيد يا ليديا!

فتنهدت وهي تقول: أنا آسفة. لنتحدّث في ترتيبات عيد الميلاد، هل تعتقد أن أخاك ديفيد سوف يأتي حقاً؟

- ولِمَ لا؟

- ديفيد غريب الأطوار. لقد سافر منذ سنوات عديدة لأنه لا يشعر بالارتياح نحو هذا المكان، وكان مولعاً بأمّه أشدّ الولع.

فقال ألفريد: كان ديفيد يثير أعصاب أبي دائماً بموسيقاه وأحلامه، وأعتقد أنه سيأتي مع زوجته في عيد الميلاد.

وقالت ليديا ساخرة: ومن المحتمل أن يصل جورج وماغدولين في الغد، وأعتقد أن ماغدولين سوف تشعر بالملل.

فقال ألفريد باستياء: أنا دائماً أتساءل، كيف تزوّج جورج فتاة تصغره بعشرين عاماً؟! لقد كان جورج مغفّلاً.

- لكنه ناجح في عمله وناخبو دائرته يحبّونه، كما أعتقد أن ماغدولين تساعده كثيراً في حياته السياسية.

قال ألفريد ببطء: أنا لا أشعر بميل نحوها. إنها جميلة حقاً ولكنني أظن أن باطنها يختلف عن ظاهرها.

وكان ألفريد على وشك أن يقول شيئاً عندما لاحظ انصراف ليديا عنه، فالتفت ليراها تتحدّث إلى رجل أسمر قائلة له بحدّة: ماذا تريد يا هوربري؟

كان صوت هوربري منخفضاً أقرب إلى الهمس وهو يقول: لقد طلب مني السيد لي أن أخبركما أن ضيفين آخرين سيحضران في عيد الميلاد ويطلب إعداد غرفتين لهما يا سيدتي.

فقالت ليديا بدهشة: ضيفان آخران؟!

- نعم يا سيدتي، سيد وشابة صغيرة.

قال ألفريد بدهشة: شابة صغيرة؟!

- هذا ما قاله السيد لي يا سيدي.

قالت ليديا: سأذهب لأقابله.

- معذرة يا سيدتي، السيد لي في غفوة بعد الظهر

وقد طلب مني ألاّ يزعجه أحد.

ثم خرج هوربري بخفة، فقالت ليديا بامتعاض: كم أكره هذا الرجل! فهو يتسلّل في القصر كالقط لا يسمعه أحد وهو قادم أو وهو منصرف.

- أنا كذلك لا أحبّه، ولكنه يعرف عمله جيداً وليس من السهل العثور على رجل ممرِّض الآن، كما أن أبي يحبّه وهذا هو الشيء الرئيسي.

- أجل، ولكن مَن تكون تلك الشابة الصغيرة؟ أعتقد أنه بدأ يشعر بالملل ويريد أن يرفّه عن نفسه في عيد الميلاد.

قال ألفريد برقّة: يا للعجوز المُقعَد المسكين! ولكن هل يفعل ذلك بعد الحياة الحافلة التي عاشها؟

- بل حياة المغامرة. أنا لا أتصوّر كيف ينجب ابناً مثلك! فأنتما على طرفَي نقيض، ومع هذا فهو يخلب لبّك وأنت ببساطة تطيعه.

- أنا أحبّه كما ينبغي للابن أن يحب أباه، أليس هذا أمراً طبيعياً؟

قالت ليديا: في هذه الحالة يكون معظم أفراد هذه الأسرة غير طبيعيين. كم كنتُ أتمنى أن أعرف والدتك!

فتنهّد ألفريد وهو يقول: لقد كانت مخلوقة بائسة.

أنا دائماً أتذكّرها مريضة والدّموع في عينيها.

ثم غيّرت ليديا موضوع الحديث قائلة: بما أنه غير مسموح لنا بمعرفة شخصية الضيفين الغامضين فسأذهب للعناية بحديقتي.

-٤-

بعد قليل خرج ألفريد إلى الحديقة وأخذ يتأمّل أحواض الزرع الصغيرة المحاطة بسورٍ من قطع الحجارة على شكل حدائق صغيرة، فكانت إحداها على شكل قطعة من الأرض الصحراوية قد زُرع فيها بعض أشجار النخيل وبها قافلة من الجِمال معها أعرابيان وتحفّ بها مجموعة أكواخ صغيرة، كما كانت هناك حديقة إيطالية تضمّ أزهاراً صناعية مختلفة الألوان، وحديقة أخرى قطبية تضمّ قطعاً من الثلج الصناعي تمرح فوقه بعض طيور البطريق، ثم حديقة يابانية فيها شجرتان جميلتان.

وأخيراً عبَر ألفريد إلى الحديقة التي كانت ليديا تعمل فيها. وكانت زوجته قد وضعَت على الأرض قطعة من الورق الأزرق غطّتها بالزجاج، وكانت تنثر فوقها مجموعة من الحصى من حقيبة صغيرة تحملها لتشكّل شاطئاً وفوق الصخور بعض أشجار الصبّار الصغيرة، فسألها ألفريد عن آخر أعمالها الفنية فقالت: أتعني هذا؟ هذا هو البحر الميّت يا ألفريد. هل تحبّه؟

قال ألفريد: إنه مجدب، ربما كان من الأفضل زيادة النباتات.

فهزّت رأسها قائلة: هذا تصوّري للبحر الميت، فهو ميّت.

ثم سمعا وقع أقدام على الشّرفة فإذا هو كبير الخدم يقترب منهما بشعره الأبيض ويقول: السيدة جورج لي على الهاتف يا سيدتي، وهي تسأل هل من المناسب أن تحضر غداً بقطار الساعة الخامسة وعشرين دقيقة.

- قل لها إن الموعد مناسب.

- شكراً لك يا سيدتي.

ثم ذهب رئيس الخدم مسرعاً وليديا تتابعه بنظراتها، ثم قالت بعطف: تريسليان العجوز العزيز على استعداد دائم للعمل، ولا أدري ماذا كنا نفعل من دونه!

فهزّ ألفريد رأسه مؤمّناً وقال: إنه واحد من المدرسة القديمة. لقد ظلّ يعمل معنا قُرابة أربعين عاماً، وهو محبوب من الجميع.

- إنه شديد الولاء للأسرة وأعتقد أنه على استعداد للتضحية بحياته إذا لزم الأمر.

-٥-

رفع ديفيد خصلة شعره التي تتدلّى بصفة دائمة على جبينه بعد أن أعاد تلاوة الخطاب مرة أخرى، ثم قال بعصبيّة: والآن يا هيلدا، ماذا نفعل بشأن هذه الدعوة؟

وتردّدت هيلدا برهة؛ فهي لا تريد أن تقطع في الموضوع برأي لأنها تعلم أنها منذ زواجها بديفيد وهي تسيطر عليه سيطرة تامة، وهي لم تكن جميلة ولكنها تتمتع بالقوّة التي تنقص زوجها، ثم قالت أخيراً: الأمر يتوقّف على طبيعة مشاعرك.

فقال ديفيد بمرارة: لا شك أنك تعرفين مشاعري.

- أنا لست واثقة.

- ولكنني سبق أن أخبرتكِ مراراً وتكراراً كم أكره الأمر كلّه، القصر والبلدة وكلِ شيء؛ فهو يعيدني إلى الإحساس بالشقاء، وعندما أتذكّر كل ما قاسته أمّي أكره كل لحظة قضيتُها هناك.

فأومأت هيلدا برأسها في حين أردف ديفيد يقول: لقد كانت رقيقة صبورة وهي ترقد متألّمة تتحمّل كل شيء، وعندما أفكّر في أبي وكيف تسبّب لها في كل ذلك الشقاء والذلّ وهو يفاخر بالحديث عن مغامراته العاطفية...

فقاطعته هيلدا قائلة: كان يجب عليها أن تعترض

وتهجر القصر.

فقال ديفيد بامتعاض: لم تكن تستطيع في تلك الأيام لأن النساء لم يكنّ يفعلن ذلك وقتها، كما كانت تفكّر في مصيرنا لأنها لو حصلَت على الطلاق، فهي بذلك تمنحه الفرصة ليتزوّج من جديد. لقد تحمّلت دون شكوى.

- بل كانت تُكثر الشكوى، وإلا ما عرفتَ كل هذا القدر يا ديفيد.

- أجل، لقد كانت تصارحني لأنها كانت تعرف مدى حبّي لها، وعندما ماتت...

وتوقف برهة وهو يتخلّل شعره بأصابعه ثم استرسل يقول: لقد كان أمراً فظيعاً يا هيلدا؛ فقد كانت شابة صغيرة. لقد قتلها أبي لأنه المسؤول عن تحطيم قلبها وموتها، لهذا قرّرتُ ألاّ أعيش معه تحت سقف ذلك البيت.

- لقد فعلتَ عين الصّواب.

- كان أبي يريدني أن أعمل معه، وهذا يعني بقائي في البيت وهو ما لا أطيقه. أنا لا أدري كيف تحمّل ألفريد ذلك طوال هذه السنين!

فقالت هيلدا باهتمام: ألم يحاول الثورة على ذلك؟

- لقد كان ألفريد يفكّر في الالتحاق بالجيش، فرتّب أبي كل شيء ليلتحق ألفريد بالجيش باعتباره الابن الأكبر وأن أعمل أنا وهاري مع أبي، أمّا جورج فيعمل بالسياسة.

- ولكن الأمور لم تجرِ على هذا المنوال، أليس كذلك؟

فهزّ ديفيد رأسه قائلاً: لقد حطّم هاري كل شيء؛ فقد تسبّب في الكثير من المتاعب وغرق إلى أذنيه في الديون، وفي آخر الأمر رحل وفي جيبه بضع مئات من الدولارات التي لا يملكها تاركاً رسالة يقول فيها إن العمل في مصانع أبيه لا يناسبه وإنه رحل ليرى العالَم.

- ألم تسمعوا عنه شيئاً منذ ذلك الحين؟

- بلى، سمعنا عنه الكثير؛ فقد كان يرسل إلينا ببرقيات من كافة أرجاء الدنيا طالباً بعض النقود، وكان يحصل عليها.

- وأنت هربت، أليس كذلك؟

- أنا لم أهرب، بل ذهبتُ إلى لندن لأدرس الرّسم، وقد أخبرني أبي بوضوح أنني إذا رحلتُ فلن أحصل في أثناء حياته إلاّ على مال قليل وعند موته سيحرمني من الميراث، ولكنني لم أكترث ولم أرَه منذ ذلك الحين.

فقالت هيلدا برقّة: ألم تشعر بالنّدم؟

- بلى، شعرتُ؛ فأنا في الواقع كنت أعرف أنني لن أحقّق شيئاً من الرّسم، ولكننا نحصل على ضروريات الحياة وعندما أموت فسوف تحصلين على قيمة التأمين على حياتي، وها نحن نواجه مشكلة العودة إلى البيت من جديد.

- يؤسفني أن أباك أرسل إليك هذه الرسالة.

- إنه يطلب مني أن أحضر مع زوجتي ليجتمع شمل الأسرة في عيد الميلاد. تُرى ما معنى هذا؟!

- معناه أنه يريد السّلام وقضاء وقت طيّب في عيد الميلاد.

- أبعد كل ما حدث؟

- أعلم يا عزيزي، ولكن ذلك كلّه حدث في الماضي، وقد انقضى الماضي.

- ليس بالنسبة لي؛ فأنا لا أستطيع أن أنسى.

- ماذا تعني يا ديفيد؟

- نحن أفراد أسرة لي هكذا، نتذكر الأشياء لسنوات طويلة ولا ننسى الماضي أبداً.

فقالت هيلدا باستياء: أهذا شيء تفتخر به؟!

قال ديفيد بعاطفية: أنا أذكر كل كلمة وحادث مما

وقع في الماضي.

- ولكن هذا خطأ يا عزيزي؛ فتلك ذكريات الطفولة، أمّا الآن فقد أصبحتَ رجلاً، وقد كانت نظرتك إلى أبيك في الماضي تصوّره لك غولاً بَشِعاً، ولكن الآن يجب عليك أن تراه كما هو إنساناً عادياً يرتكب الأخطاء. صحيح أنا لا أنكر دناءة أفعاله ولكنه بَشَر.

- أتريدين أن تقولي بهذا إن أمي كانت المسؤولة، وإنه...؟

فقاطعته هيلدا قائلة: بالطبع لا؛ فليس لديّ شك في أن والدك عامَل أمّك معاملة سيئة، ولكن الزّواج شيء غير عادي ولا يستطيع الابن أن يُنصِّب من نفسه قاضياً. لقد انتهى الماضي وأصبح وراء ظهرك ولم يتبقَّ منه سوى رجل عجوز ضعيف يطلب من ابنه العودة إلى البيت في عيد الميلاد.

- وهل تريدين مني أن أذهب؟

تردّدت هيلدا برهة قبل أن تجيب: نعم، أريد منك أن تنسى الكراهية إلى الأبد.

-٦-

بلغ جورج لي عضو البرلمان عن دائرة وسترنغهام

واحداً وأربعين عاماً، وهو أقرب إلى السّمنة أزرق العينين يعلو وجهه تعبير من الشك، كما أنه بطيء اللهجة في حديثه، وكانت زوجته ماغدولين شقراء ذات حاجبين رفيعين ووجه بيضاوي الشكل. نظر جورج إلى زوجته قائلاً: لقد أخبرتكِ أن من واجبي أن أذهب يا ماغدولين.

فهزّت زوجته كتفيها وقالت: أنا واثقة أن الجوّ سيكون كئيباً.

- لا تنسَي أن ذهابنا سيوفّر نفقات عيد الميلاد الباهظة، كما نستطيع أن نعطي الخدم إجازة بغير أجر.

فقالت ماغدولين بتأفُّف: أنت تفكّر دائماً في التوفير! لماذا لا تطلب من أبيك زيادة الإعانة التي يرسلها لك؟

- إنه يمنحني إعانة طيّبة بالفعل.

- من المخجِل أن تعتمد على أبيك اعتماداً كلياً في حين أنه من الواجب أن يمنحك بعض المال لتتصرّف فيه كما تشاء!

- ليس هذا هو الأسلوب الذي يتعامل به أبي.

فحملقت ماغدولين في وجهه برهة ثم قالت: إنه ثري ثراء فاحشاً يا جورج، أليس مليونيراً؟

- بلى، فلديه مليونان على ما أعتقد.

- كيف حصل عليها؟ من جنوب إفريقيا؟

- نعم. لقد جمع ثروة طائلة في بداية حياته من الماس على وجه الخصوص، ثم جاء إلى إنكلترا ليضاعف ثروته.

فسألته ماغدولين باهتمام قائلة: وماذا يحدث بعد موته؟

- لم يقُل أبي شيئاً ولا نستطيع بالطبع أن نسأله، ولكنني أظن أن الجزء الأكبر من الثروة سوف يكون لألفريد ولي أنا أيضاً، وسوف يحصل ألفريد على القدر الأكبر بالطبع. أجل، ثم هناك أخي ديفيد، ولا أظن أنه سيحصل على الكثير لأن أبي حذّره بالحرمان من الميراث إذا أصرّ على السير وراء نزواته ولكن ديفيد لم يعبأ بالتهديد.

فقالت ماغدولين باحتقار: يا له من غبيّ أحمق!

- مثل أختي جنيفر، وقد رحلَت مع رسّام إسباني هو أحد أصدقاء ديفيد، ولكنها ماتت منذ عام تاركة ابنة على ما أعتقد، وربما يوصى أبي لها بالقليل من المال، وهناك هاري.

وتوقّف جورج متردّداً فقالت ماغدولين بدهشة: هاري؟! مَن هاري؟

- أخي.

- ولكني لم أسمعك تتحدّث عن أخ بهذا الاسم قطّ!

- لقد كان سيء السمعة ولهذا لم نكن نتعرّض له في أحاديثنا، كما أننا لم نسمع أخباراً عنه منذ سنوات وربما يكون قد مات.

وضحكت ماغدولين فسألها زوجها عمّا يُضحِكها فقالت: كنتُ أفكّر في غرابة أن يكون لديك أخ سيء السمعة وأنت إنسان محترم للغاية. ولكن ماذا عن أبيك يا جورج؟ لا أظن أنه يتمتع باحترام كبير.

فقال جورج بامتعاض: أنتِ تدهشينني بأرائك في بعض الأحيان! هل تشاركين ليديا نفس المشاعر؟! لقد تقدّم أبي في العمر، ومع ضعف صحّته...

ثم صمت فبادرته زوجته بقولها: أهو مريض مرضاً خطيراً؟

- لا أستطيع أن أجزم بذلك، ولكنه ربما يطمع في التفاف أفراد الأسرة حوله في عيد الميلاد، ومن ثَم يتحتّم علينا الذهاب؛ فقد يكون هذا آخِر أعياد الميلاد بالنسبة له.

فقالت ماغدولين بحدّة: أنت الذي تقول هذا يا جورج! ولكنني أعتقد أنه قد يعيش عدة سنوات.

- أجل، وأعتقد أنه من الصواب أن نذهب.

- ولكني أكره الذهاب لأن ألفريد كئيب وزوجته تزجرني دائماً.

فقال جورج: هذا ليس صحيحاً.

- بل هي تفعل ذلك، كما أنني أكره ذلك الخادم المتوحّش هوربري الذي يتسلّل إلى كل مكان بخفّة القطط.

وصمتت برهة ثم استطردت قائلة: سوف أذهب لأتّصل بليديا لأخبرها أننا سوف نصل بقطار الساعة الخامسة والنصف غداً.

ثم تركت الغرفة على عجَل، وبعد انتهائها من الحديث الهاتفي ذهبَت إلى غرفتها ففتحت أدراج المكتب لتخرج منها أكواماً من الفواتير التي لم تُسدَّد بعدُ وحاولت أن ترتّبها حسب مواعيد الاستحقاق، ثم همست لنفسها قائلة: أنا لا أدري كيف سنتمكّن من سداد كل هذه الفواتير!

-٧-

يوجد في الطابق الأوّل من قصر غورستون ممر طويل يؤدّي إلى غرفة كبيرة تطلّ على المدخل وأثاثها جميعه من الطّراز القديم إلاّ أن كل ما فيها ثمين. وكان يجلس على أكبر المقاعد عجوز هزيل مجعد الوجه

مصفرّ الجلد، ولكن الذي يدقّق في وجهه سرعان ما يكتشف أنه ليس ضعيفاً كما يوحي مظهره؛ فقد كان ممتلئاً بالحيوية والقوّة والنشاط. كان سيميون لي العجوز يقهقه مسروراً عندما قال: هل أبلغتَ رسالتي إلى السيدة ألفريد؟

وكان هوربري واقفاً بالقرب منه فأجابه بقوله: نعم يا سيدي.

- هل أبلغتها بنفس الكلمات التي لقّنتُها لك؟

- نعم يا سيدي، ولم أخطئ في كلمة واحدة.

فقال العجوز: نعم، لا ينبغي أن ترتكب خطأ واحداً وإلاّ ندمتَ أشدّ الندم. وبماذا أجابت ليديا يا هوربري؟

روى له الخادم ما حدث، فقهقه العجوز مرة أخرى وهو يقول: رائع جداً! سوف يظلاّن يفكّران ويفكّران طوال فترة ما بعد الظهر. نادِهما فسوف أستقبلها الآن.

- سمعاً وطاعة يا سيدي.

ثم خرج الخادم بخفّة القطط فقال العجوز لنفسه محنقاً: هذا الفتى يتسلّل كالقطط ولا يعرف الإنسان أين هو!

وظلّ العجوز جالساً حتى دخل ألفريد وليديا،

فطلب العجوز من زوجة ابنه أن تقترب منه، فقال ألفريد: كيف حالك يا أبي؟ لعلك استمتعتَ بغفوة بعد الظهر؟

- استمتعتُ جيداً وحلمت بالأيام الخوالي قبل أن أُصبح من أعمدة المجتمع.

ثم قهقه العجوز عندما سأله ألفريد عن الضيفين الغامضَين وقال بسرور: نعم، يجب أن أحدّثكم عن ذلك. سوف يكون عيد الميلاد رائعاً هذا العام. دعوني أتذكّر، سوف يأتي جورج وماغدولين، أليس كذلك؟

قالت ليديا: سيصلان بقطار الساعة الخامسة وعشرين دقيقة.

فقال سيميون العجوز: يا لجورج المسكين! فهو لا يعدو أن يكون بالوناً منفوخاً، ولكنه ابني على كل حال.

فقال ألفريد: ولكن ناخبي دائرته يحبّونه.

فقهقه العجوز مرة أخرى ثم قال ساخراً: لعلهم يحسبونه أميناً! لم يوجد بعد في عائلة لي مَن يمكن أن يوصف بالأمانة.

وعندما اعترض ألفريد قال العجوز: أنت الاستثناء الوحيد من هذا القول يا ولدي.

فقالت ليديا: وماذا بشأن ديفيد؟

فقال سيميون: أنا في شوق لرؤيته بعد كل هذه السنين. لقد كان صغيراً طائشاً. تُرى ما شكل زوجته؟ على أية حال فهو لم يتزوّج فتاة تصغره بعشرين عاماً مثل ذلك الأحمق جورج.

فقالت ليديا: لقد كتبَت هيلدا خطاباً شديد الرّقة، كما تلقّيتُ منذ قليل برقيّة منها تؤكّد قدومها غداً.

فرمقها العجوز بنظرة طويلة ثم ضحك وقال: أنتِ سيدة حسنة التربية يا ليديا وأنا أعرف ذلك جيداً. غريبة حقاً مسألة الوراثة هذه! لا يوجد بينكم سوى فرد واحد ورث عني صفاتي، واحد فقط بين تلك العصبة! والآن خمّنوا مَن القادمون في عيد الميلاد، وسأعطيكم ثلاث فُرَص وأراهن بخمسة جنيهات على أنكم لن تنجحوا.

قال ألفريد: لقد قال هوربري إنك تتوقّع حضور شابة صغيرة.

فأجاب العجوز: هل ضايقك ذلك؟ سوف تصل بيلار بين لحظة وأخرى؛ فقد أرسلتُ السيارة لإحضارها.

فقال ألفريد بحدّة: ومَن تكون بيلار؟

قال سيميون: بيلار أسترافادوس ابنة جنيفر... حفيدتي. تُرى كيف تبدو؟

فصاح ألفريد: يا إلهي! ولكنك لم تخبرني يا أبي.

- فضّلتُ أن أُبقِي الأمر سرّاً فكلّفت شارلتون بالكتابة لها وترتيب الأمور.

فكرّر ألفريد بلهجة العتاب: ولكنك لم تخبرني قطّ، لقد...

فقاطعه العجوز قائلاً: كان ذلك سيفسد المفاجأة. أنا أتساءل كيف تكون الأحوال عندما يعيش تحت سقف هذا القصر دم شابّ جديد؟ أنا لم أرَ أسترافادوس قطّ، وأتساءل هل أخذت الفتاة عن أمّها أم عن أبيها؟

فعاد ألفريد يقول: هل تعتقد أن هذا كان تصرّفاً عاقلاً يا أبي بعد...

فقاطعه العجوز قائلاً: الأمان... أنت تفكّر دائماً في الأمان يا ألفريد، ولكن أسلوبي يختلف عن ذلك. الفتاة حفيدتي وهي الحفيدة الوحيدة في العائلة، ولا يهمّني ماذا كان أبوها أو ما فعله؛ فهي من لحمي ودمي، وهي قادمة لتعيش معي في هذا البيت.

قالت ليديا بحدّة: أهي قادمة لتعيش هنا؟!

فرمقها العجوز قائلاً: هل لديكِ اعتراض؟

فهزّت رأسها وقالت باسمة: لا أستطيع أن أعترض على طلبك من إنسان أن يقيم في بيتك.

ثم التفت سيميون نحو ألفريد وقال له: ألا ترى أنه

سوف يكون عيداً رائعاً حينما يحيط بي جميع أولادي، أولادي كلّهم؟ والآن هل تستطيع أن تخمّن مَن يكون الضّيف الآخر؟

ونظر العجوز إلى وجه ألفريد ثم أردف يقول: كل أولادي... خمّن يا فتى. إنه هاري طبعاً، أخوك هاري.

فشحب وجه ألفريد وقال متلعثماً: هاري؟! أليس هاري...؟!

- إنه هاري بعينه.

- ولكننا كنا نعتقد أنه مات.

- ليس هو.

فقال ألفريد باستياء: عودة الابن الضالّ!

- الابن الضال؟ أجل، أنت على حقّ، ولكن ينبغي أن نرحّب به أشدّ الترحيب يا ألفريد.

- هل ستسمح له بالعودة بعد كل ما حدث؟ لقد عاملك وعاملنا كلنا معاملة مشينة. لقد...

- لا تعدّد جرائمه، سوف نرحّب بعودة الابن الضالّ.

فوقف ألفريد وهو يتمتم قائلاً: في الواقع هذه صدمة؛ فلم أحلم بعودة هاري ليعيش تحت سقف هذا

البيت قطّ.

فمال العجوز بجسمه إلى الأمام وهو يقول: أنت لم تحبّ هاري قطّ.

- أتقول ذلك بعد كل ما فعله معك؟

فقهقه سيميون ثم قال: نعم. لننسَ الماضي، أليس كذلك يا ليديا؟

فقالت ليديا بجفاف: أرى أن لديك فكرة طيبة عن عيد الميلاد هذا العام.

- أريد أن يلتفّ أفراد العائلة حولي بالسلام والنوايا الطيّبة؛ فقد أصبحتُ رجلاً عجوزاً. هل أنت ذاهب يا عزيزي؟

خرج ألفريد فقال سيميون: لقد ضايقه الخبر؛ فلم تكن العلاقة بينه وبين هاري طيّبة لأن هاري كان يسخر منه ويقول عنه أنه ذو الخُطى البطيئة الواثقة.

قالت ليديا: هل يعني سباق الأرنب والسلحفاة؟ حسناً، السّلحفاة هي التي تفوز بالسباق.

- ليس دائماً يا عزيزتي ليديا. أجل، لأن ألفريد لا يميل إلى التغيير.

فقالت ليديا: ألفريد مولع بك أشدّ الولع.

- وهل يبدو ذلك مستغرَباً في نظرك؟

- أحياناً.

ثم غادرت الغرفة والعجوز يتابعها بنظراته، ثم قهقه ضاحكاً وهو يفرك يديه بسرور محدّثاً نفسه بقوله: سوف يكون العيد مسلّياً للغاية.

ثم فتح خزانته بيد مرتعدة فأخرج منها حقيبة صغيرة من الجلد وأفرغ منها مجموعة من قطع الماس الخام وأخذ يقلّبها بين أصابعه وهو يقول: حسناً أيتها القطع الجميلة، ما زلتنّ كما أنتُنّ صديقاتي القديمات. لقد كانت لنا أيام طيّبة، ولن يقطعكنّ أحدٌ حتى تتعلّقن حول جيد النساء أو حول أصابعهن أو آذانهن، وسوف تبقين ملكاً لي وحدي. آه يا صديقاتي القديمات، أنا وأنتنّ نعلم بعض الأشياء. يقولون إنني صرت عجوزاً مريضاً، ولكنني لم أنتهِ بعدُ ولا تزال في القلب العجوز بقية حياة ولا يزال ينتظر قدراً كبيراً من المتعة!

* * *

الفصل الثاني
٢٣ كانون الأول (ديسمبر)

-١-

أسرع تريسليان ليخبر أفراد الأسرة بوصول هاري، وفوجئ هاري بالشابة الجميلة فقال لها: هل أنت الزوجة الجميلة السابعة لأبي؟

فقالت بيلار: أنا بيلار أسترافادوس. لا شك أنك العمّ هاري، أليس كذلك؟

وجاءت ليديا تقدّم نفسها، ثم سألت هاري عن رأيه في القصر وهل تغيّر كثيراً عمّا كان عليه منذ عشرين عاماً أم لا، فقال هاري إنه ما زال كئيباً كما كان، ثم سألها عن أخيه ألفريد وعن صحّة أبيه، وعندما علم أن جميع أفراد الأسرة مدعوّون لعيد الميلاد قال: ماذا حدث للرجل العجوز؟! إنه لم يكن يعير العواطف أدنى أهمية. لا شك أنه تغيّر!

وقطع هاري ضحكته حينما رأى ألفريد قادماً،

ولكن استقبال أخيه له كان فاتراً فردّ هاري على ذلك بقوله: أنا سعيد لأنني عدتُ إلى البيت.

-٢-

كان سيميون لي مضطجعاً في مقعده المريح وأمامه بالقرب من نيران المدفأة المتوهّجة تجلس بيلار، وكان العجوز يكلّم نفسه أكثر مما يكلّم حفيدته، فقال إنه شرّير غَشّ وسرق وكذب، كما اعترف أنه تسبّب في تعاسة زوجته أديليدا، ثم أخذ يتكلّم عن أبنائه فيما عدا هاري وأن أحداً منهم لم يرث صفاته، ثم سأل بيلار عن رأيها في هاري فقالت: إنه لطيف يضحك بمرح وأنا أميل إليه كثيراً.

وصمتت بيلار برهة ثم قالت: لدينا في إسبانيا حكمة تقول: خُذ من الحياة ما تشاء ولكن عليك أن تدفع الثّمن.

فقال العجوز: لقد أخذتُ من الحياة كل ما أريد.

- وهل دفعتَ الثّمن؟

فقال العجوز محتدّاً: ماذا تقصدين أيتها البنت؟ أنت شيطانة صغيرة!

فقالت بيلار بدلال: ولكنك رغم ذلك تحبّني يا جدّي، أليس كذلك؟

- بلى، أحبّك. لقد مضى عهد طويل لم يعرف هذا المكان مثل شبابك وجمالك، فضلاً عن أنك من لحمي ودمي، ولكنني أعلم لماذا تجلسين معي بصبر تستمعين إلى ثرثرتي، إنه المال! وسوف تدّعين أنك تحبين جَدّك العجوز، أليس كذلك؟

فقالت بيلار: لقد كنتَ شرّيراً في شبابك إلاّ أنني أحبّ ذلك أيضاً، ولو أنني كنتُ رجلاً لفضّلت الحياة التي عشتَها.

فهزّ سيميون رأسه قائلاً: يقولون إن الدّم الغجريّ يجري في عروق أسرتنا، وربما تكونين أنت الوحيدة من بين أفراد الأسرة التي تظهر عليها هذه الصفة. أنا أستطيع أن أصبر إذا لزم الأمر، فقد أساء إليّ أحدهم ذات يوم فانتظرتُ خمسة عشر عاماً حتى انتقمتُ منه.

ثم ضحك ضحكة رقيقة فسألته بيلار أن يحدّثها عن حياته في جنوب إفريقيا، فأخذ يتكلّم وهي تصغي إليه، ثم تحامل ووقف على قدميه بحذر قائلاً: سأُطلعكِ على شيء مثير.

ثم أدار أرقام خزانة النقود ففتحها، ثم أخرج الحقيبة الجلدية وألقى محتوياتها بين يدي حفيدته قائلاً: افحصيها جيداً وتحسّسيها بأصابعك. هل تعرفين ما هذه يا طفلتي؟ هذه ماسات، قطع من الماس.

- أراها مجرّد قطع من الحصى!

- إنها ماسات خام لم تُقطَّع بعدُ، ولو أنها قُطِّعت لظهر بريقها الذي يخطف الأبصار. إن ثمنها لا يقل عن بضعة آلاف من الجنيهات.

- لماذا لا تبيعها إذن؟

- لأنني أريدها كما هي؛ فهي تذكّرني بأيام الشّباب والشمس الساطعة والسّماء الصافية.

وعندما سمع العجوز طَرقة خفيفة على الباب أعاد الماسات إلى مخبئها، ثم دخل هوربري ليعلن عن حلول موعد تقديم الشاي.

-٣-

تكرّر رنين جرس الباب قبل أن يصل تريسليان إلى الباب فهزّ رأسه بدهشة؛ فقد كان نفس الشيء يتكرّر عند وصول هاري. ثم فتح الباب ليجد شاباً غريباً يسأل عن السيد لي، فأخبره رئيس الخدم أن السيد لي مُقعَد ولا يتحرّك، فقدّم له بطاقة وطلب منه أن يحملها إلى سيّده. قرأ العجوز البطاقة وقال: كنتُ أفكّر منذ قليل في أبينيزر فار العجوز؛ فقد كان شريكي في كيمبرلي، وها هو ابنه يأتي. دعه يدخل.

دخل ستيفن متردّداً فرحّب به العجوز ثم قال الشاب: هذه أولى زياراتي للوطن، وقد كان أبي يقول لي

دائماً أن أبحث عنك بمجرّد وصولي.

قدّم له العجوز حفيدته بيلار فحيّته الفتاة بأدب كأنها تراه للمرة الأولى، فأُعجب ستيفن بثبات أعصابها، ثم طلب سيميون من حفيدته أن تُخبر ليديا بوصول ضيف جديد لتأمر بإعداد حجرة له ليقضي عيد الميلاد مع الأسرة، فحاول ستيفن أن يعتذر لأنه لا يريد أن يسبّب أيّ حرج للأسرة، فسأله العجوز عمّا إذا كانت لديه خطط معيّنة أم لا، وعندما اعترف الشاب بأنه ليس مرتبطاً بشيء معين أصرّ العجوز على بقائه، فقال ستيفن: ولكنني سأُقحِم نفسي على أفراد أسرة يحتفلون بالعيد.

فقال سيميون بوداعة: أنت واحد من الأسرة يا بنيّ، واعتبر نفسك كذلك.

- هذا كرم بالغ منك يا سيدي.

* * *

الفصل الثالث
٢٤ كانون الأوّل (ديسمبر)

-١-

احمرّ وجه سيميون غضباً عندما قال هاري ردّاً على دعوته له بالاستقرار في القصر بأن أخاه ألفريد لا يرحّب بالفكرة، ثم سأل قائلاً: بالمناسبة، من أين تزوّج جورج؟

- سمعتُ أنه التقطها من عرْض للأزياء وأنها ابنة ضابط بحريّ متقاعد.

ضغط سيميون الجرس فظهر هوربري على الفور فطلب منه أن ينادي ألفريد، وقال هاري بعد انصراف هوربري: هذا الخادم يتصنّت على الأبواب.

جاء ألفريد متجهّم الوجه فتجاهل هاري وسأل أباه عمّا إذا كان قد أرسل في طلبه أم لا، فأخبره الأب العجوز باقتضاب أن شخصين جديدين سيعيشان

في القصر هما بيلار وهاري، فحاول ألفريد الاعتراض ولكن الأب قال بحدّة: ألستُ أنا السيد في هذا البيت؟! لا تنسَ أن هاري ابني أيضاً وأنا أرغب في بقائه.

وحينما غادر ألفريد الغرفة ممتقع الوجه قهقه سيميون عالياً، ثم نظر حوله فجأة بدهشة عندما رأى هوربري فقال له: استمع إلى ما أقوله لك جيداً، أريد أن أرى الجميع بعد الغداء. وهناك أمر آخَر، وهو أن ترفع صوتك لحظة قدومهم لتنبّهني، وتصنّعْ أيّ حجة.

عندما التقى هوربري بتريسليان بعد ذلك قال له باسماً: سيكون عيد الميلاد هذا العام حافلاً بالمرح.

-٢-

كان سيميون يتحدّث في الهاتف عند وصولهم إلى باب الحجرة فلوّح لهم بذراعه قائلاً: مهلاً، دقيقة.

ثم استأنف سيميون حديثه في الهاتف قائلاً: هل هذا مكتب شارلتون وهود جكنز وبريس؟ أهذا أنت يا شارلتون؟ أنا سيميون. نعم. لا، أنا أريد أن أكتب وصية جديدة. نعم؛ فقد مضى زمن طويل منذ كتبتُ الوصية السابقة وقد تغيّرَت الظروف الآن. لا، لا أريد أن أفسد عليك حفل عيد الميلاد. تستطيع أن تحضر بعد يوم أو يومين بعد انتهاء العيد. تعالَ وسوف أخبرك بما أريده.

لا، هذا مناسب تماماً، ولن أموت حتى ذلك الحين!

ثم أعاد السّماعة إلى مكانها ونظر إلى أفراد الأسرة ثم قال بسرور: ما لي أراكم واجمين؟ ماذا دهاكم؟ هل ظننتم أنني شعرت بالملل؟ لا أريد من أحد منكم أن يكلّف نفسه مشقّة الصعود إلى حجرتي بعد العشاء لأنني سوف أنام باكراً حتى أكون منتعشاً يوم العيد.

والتزم العجوز الصمت برهة ثم استرسل قائلاً: عيد الميلاد يتطلّب اجتماع شمل الأسرة، وأنا لا أريد أن أقول أشياء غير سارّة في هذه المناسبة ولكنني أخشى أن أخبرك يا جورج بأنني مُضطرّ لتخفيض الإعانة التي أدفعها لك.

فحاول جورج الاعتراض محتجّاً بأن مصروفاته في ازدياد مستمرّ ولكن الأب العجوز أخبره أن على زوجته أن تقتصد في نفقات شراء الثياب الفاخرة، ثم أضاف قائلاً: المرأة الذكية تصنع ملابسها بنفسها. أنا أذكر أن زوجتي كانت بارعة في أعمال الإبرة، وكانت زوجة طيّبة رغم غبائها الشديد.

وحاول ديفيد الاعتراض ولكن أباه استمرّ في حديثه قائلاً: كان لأمّك رأس حشرة، ويبدو لي أنها أورثتكم ذلك، فكلّ واحد منكم لا يساوي بنساً. أنتم مجموعة من الضعفاء الكسالى، وأنا أتمنّى أن أكون قد أنجبتُ في مكان آخَر من هذا العالَم ابناً أفضل منكم حتى لو كان

ابناً غير شرعيّ.

فصاح هاري محتجّاً: كفى يا أبي، كفى!

فأجابه سيميون بحدّة: هذا الكلام ينطبق عليك أيضاً. ماذا فعلت طوال حياتك؟ لقد ظللت تطالبني بالنقود من كل مكان تذهب إليه في العالَم. أقول لكم؟ لقد سئمت رؤيتكم. اغربوا عن وجهي جميعاً.

ثم مال العجوز بجسده إلى الوراء، وبدأ الجميع ينصرفون الواحد بعد الآخر، وقد بدا جورج ممتقع الوجه وماغدولين تبدو مرتاعة في حين بدا ديفيد ممتقع الوجه يرتجف، أمّا ألفريد فقد كان يسير كالحالم وتتبعه ليديا مرفوعة الرأس، وتردّدت هيلدا وحدها فسألها العجوز بحدّة عمّا تريد فقالت: أنت لم تجمع الأسرة من أجل الهدف الذي تحدّثتَ عنه، بل لتسخر منهم، ولكنني خائفة.

- هل أنت خائفة مني؟

فقالت هيلدا كالقاضي الذي يصدر حكمه: بل خائفة عليك.

وبعدما غادرت الغرفة وقف سيميون معتمداً على نفسه فاتجه نحو الخزانة الحديدية هامساً لنفسه: فلأُلقِ نظرة على كنزي الجميل.

-٣-

رنّ جرس الباب في الثامنة إلا الربع فذهب تريسليان ليرى مَن الطارق، ثم عاد ليجد هوربري ممسكاً بأحد أقداح القهوة ليقرأ الاسم المكتوب عليه، وحين سأله عن الطارق قال كبير الخدم: مفتّش الشرطة، السيد سادغن. ولكن ما هذا الذي في يدك؟

فسقط القدح من يد هوربري على الأرض محدِثاً قرقعة فقال تريسليان: ظللتُ لمدّة أحد عشر عاماً أُعنى بتلك الأقداح فلم أكسر واحداً منها، وها أنت ترى نتيجة تدخّلك في عمل ليس من اختصاصك.

ثم سأله هوربري بارتباك عن سبب قدوم المفتش، وعندما أخبره تريسليان بأنه جاء يجمع تبرّعاً لملجأ أيتام رجال الشرطة تنهّد هوربري بارتياح، ثم قال رئيس الخدم إنه متأكّد من أن سيّده سيتبرّع للملجأ بسخاء، فشاركه هوربري الرأي ثم انصرف قائلاً إنه سيذهب إلى دار العرض.

وحين فرغ تريسليان من إعداد المائدة للعشاء كان مفتّش الشّرطة يهبط الدرَج بسُترته الرّسمية الأنيقة ثم قال: أعتقد أن الليلة ستكون شديدة البرودة.

ثم قاده رئيس الخدم إلى الباب الأمامي ثم عاد ليدقّ معلناً عن تقديم العشاء، فجاء أفراد الأسرة واحداً

تلو الآخر في صمت، وكان ألفريد شديد العصبية في حين كان جورج محمرّ الوجه، وتناول الجميع الطعام في صمت ولم يكن يُسمَع سوى صوت بيلار وهي تتكلّم مع ستيفن فار. وقد شعر تريسليان بالاكتئاب وهو يقدّم القهوة في غرفة الجلوس؛ فقد كان يسود الجوّ شعور بالوحشة والكآبة عشيّة عيد الميلاد.

عندما عاد تريسليان إلى غرفة الجلوس ليجمع الأقداح كانت الغرفة خالية فيما عدا ليديا التي كانت تنظر من النافذة بوجوم، وكان صوت البيانو مسموعاً من الغرفة المجاورة فتساءل كبير الخدم في نفسه قائلاً: لماذا يعزف ديفيد اللحن الجنائزي؟!

ثم خرج تريسليان إلى الطرقة بهدوء، وفي تلك اللحظة سمع من الطابق العلوي أصوات الأواني الصينية تتحطّم والأثاث ينقلب مع مجموعة من أصوات الارتطام فصاح بدهشة قائلاً: يا إلهي! ماذا يفعل السيد في حجرته؟

وفي تلك اللحظة سمع الجميع بوضوح صرخة مدوّية ثم ما يشبه الغرغرة أو الاختناق، فأسرع الجميع إلى الطابق العلوي. وكان السيد فار أسبقهم في الوصول إلى باب غرفة السيد لي وحاول فتح الباب دون جدوى، ولم يكن ثمة صوت يصدر من الداخل، فتعاون الجميع على تحطيم الباب ثم توقّف الجميع في دهشة أمام قطع

الأثاث المقلوبة والأواني الصينية المحطّمة في حين كان سيميون لي يرقد على السجّادة سابحاً في بركة من الدماء.

قال ديفيد بوجوم: طواحين الله تسحق ببطء!

وقالت ليديا بصوت أقرب إلى الهمس: مَن كان يتصوّر أن في العجوز كل هذا القَدر من الدم؟!

-٤-

ضغط المفتش سادغن ثلاث مرّات على جرس الباب قبل أن يفتح له والتر الذي بادره بالقول: لقد كنتُ أحاول الاتصال بالشرطة!

فقال المفتش بحدّة: ولماذا؟

فأجابه والتر بصوت مرتجف: لقد لقي السيد لي العجوز مصرعه!

فأسرع المفتش إلى مكان الحادث وقال بلهجة الآمر: اتركوا كل شيء على حاله ولا تلمسوا أيّ شيء.

ثم التفت المفتش إلى بيلار وطلب منها أن تناوله الشيء الذي التقطَته من الأرض، فتردّدت الفتاة قليلاً ثم فتحت يدها وسلّمَت الشّرطي قطعة من المطاط وقطعة

أخرى من الخشب، فوضعهما المفتش في مظروف أودعه في جيبه بعناية، ثم طلب من الجميع مغادرة الغرفة عدا السيد ديفيد لي والسيد جورج لي.

-٥-

كان الكولونيل جونسون رئيس مركز الشرطة في ميدل شاير يجلس مع ضيفه هيركيول بوارو أمام النيران المشتعلة في المدفأة وهما يسترجعان بعض ذكريات الماضي عن الجرائم التي تعاونا في الكشف عن مُرتكبيها. وكان الكولونيل سعيداً وهو يؤكّد أن الجرائم تقلّ في مثل ذلك الوقت من العام ويمنّي نفسه بعيد ميلاد هادئ، ولكن هيركيول بوارو لم يكن يشاركه ذلك الرأي. وبينما كان الكولونيل يدافع عن وجهة نظره بحرارة رنّ جرس الهاتف، فرفع الكولونيل السمّاعة واستمع إلى الحديث الدائر من الطرف الآخر برهة، ثم وضع السمّاعة وهو ممتقع الوجه قائلاً لبوارو: هذا هو المفتش سادغن. لقد وقعَت جريمة بشعة.

- ومَن الضّحية؟

- ثريّ عجوز يُدعى سيميون لي، جمع ثروته في أثناء بحثه عن الماس في جنوب إفريقيا، ثم أقام صناعة خاصة بالتعدين بعد عودته، وثروته تزيد الآن على المليونين.

فسأله بوارو: هل كان رجلاً محبوباً؟

- لا أعتقد ذلك؛ فهو رجل غريب الأطوار، وهو مُقعَد منذ بضع سنوات.

وعندما رأى الكولونيل يستعدّ للذهاب إلى مكان الجريمة عرض عليه أن يرافقه فرحّب رئيس الشرطة به، فقال بوارو: سوف أرافقك كمستشار لا أكثر، كي لا أجرح مشاعر المفتش سادغن.

فتح لهما البابَ شرطي وكان المفتش سادغن يقف خلفه، وقام الكولونيل جونسون بواجبات التعارف. وقد أطال بوارو النظر إلى سادغن وقد استرعى انتباهه طول قامته وكتفاه العريضتان وفكّه القوي وشاربه الكث. قال جونسون لمساعده: لا شك أنك سمعتَ عن السيد بوارو.

فقال سادغن: أجل، وأنا لا أنسى معاونته في جريمة مقتل السيد بارثلوميو سترينغ.

ثم سأل رئيس الشرطة مساعده عمّا إذا كان واثقاً من أن في الأمر جريمة قتل فأكّد سادغن أنها جريمة بشعة، فطلب منه الكولونيل أن يروي الوقائع فقال المفتش سادغن: لقد اتّصل بي السيد لي في الساعة الخامسة من بعد ظُهر اليوم وطلب مني الحضور في تمام الثامنة وألحّ عليّ في الوصول في ذلك الموعد، ثم طلب مني

أن أخبر رئيس الخدم أنني قادم لجمع التبرّعات لصالح الشرطة. وقد وصلتُ قبل الثامنة بقليل وأخبرتُ رئيس الخدم بالغرض من مجيئي، وسرعان ما استقبلني السيد لي في غرفته التي تقع فوق غرفة المائدة. وكان السيد لي يجلس على مقعد أمام المدفأة، وحين انصرف الخادم طلب مني أن أجلس على المقعد المجاور، ثم أخبرني أن بعض قطع الماس الخام، والتي يبلغ ثمنها آلاف من الجنيهات، قد سُرقَت من خزانته، فوجّهتُ إليه الأسئلة المعتادة وكانت إجاباته مبهمَة، وفي النهاية قال لي إن السرقة من الممكن أن تكون قد ارتُكبت بدافع المزاح ولكنه ليس متأكداً، وعندما سألتُه عن المطلوب مني قال بسرعة: أريد منك أن تعود في التاسعة والربع؛ ففي ذلك الوقت ربما أكون قد عرفت الحقيقة.

فعلّق الكولونيل جونسون على ذلك بقوله: هذا أمر شديد الغرابة! ما رأيك يا بوارو؟

- حقاً هذا شيء غريب.

ثم وجّه بوارو الحديث إلى سادغن قائلاً: هل أستطيع أن أسألك عن رأيك الشخصي؟

فأجاب سادغن قائلاً باهتمام: لا أظن أن في الأمر مزحة؛ فقد سُرقت الماسات بالفعل ولكن السيد العجوز لم يكن متأكّداً من شخصية السارق، وأظن أنه كان على حقّ حين حصر شبهاته في واحد من اثنين، أحدهما

خادم والآخر أحد أفراد الأسرة، ومن ثَمّ كان إصراره على عودتي في نفس الليلة حتى يعلم السارق أنه اتصل بالشّرطة، فإمّا أن يعيد الماس، وبذا يطلب العجوز من الشّرطة نسيان الأمر، وإمّا ألاّ يعيده ويترك الأمر للشّرطة لتُجري التحقيق بمعرفتها.

ثم سأله جونسون: هل لديك فكرة عن الشخص الذي ينتمي للأسرة؟

- لا يا سيدي.

ثم استطرد سادغن حديثه قائلاً: لقد عُدتُ في الساعة التاسعة والربع تماماً، وبينما كنتُ على وشك أن أضغط الجرس سمعت صرخة من الداخل تلتها أصوات غريبة، فضغطتُ الجرس أكثر من مرة قبل أن يفتح لي أحد الخدم، وكان في حالة يُرثى لها، ثم روى لي ما حدث فأسرعتُ إلى غرفة السيد لي فوجدتها في حالة من الفوضى الشاملة، وكان من الواضح أن قتالاً عنيفاً دار بين السيد لي وقاتله، ورأيت العجوز ملقىً على الأرض وسط بركة من الدماء وعُنقه مقطوع.

فسأله الكولونيل بحدّة قائلاً: هل يمكن أن يفعل ذلك بنفسه؟

فأجاب سادغن: مستحيل يا سيدي؛ فقد كانت قطع الأثاث مقلوبة ولم يكن هناك أثر للأداة التي استُخدمت

في ارتكاب الجريمة.

فسأله جونسون بغضب: وما رأيك يا سادغن؟

- لا شكّ أن القاتل من داخل القصر.

- وماذا بشأن النافذة؟ هل كانت مفتوحة أم مغلقة؟

- للغرفة نافذتان يا سيدي، وكانت إحداهما مغلقة والأخرى مفتوحة بمقدار بضع بوصات، ولكنها مثبّتة بإحكام من أثر الصدأ، ومن الواضح أنها لم تُفتَح منذ سنوات، فضلاً عن أنه لا توجد أشجار أو نباتات متسلّقة بجوار النوافذ.

- هل للحجرة أكثر من باب؟

- ليس لها غير باب واحد؛ فهي تقع في نهاية الممرّ، وكان الباب موصداً من الداخل عندما سمع الجميع صرخة القتيل وأصوات المعركة.

فسأل جونسون بغضب: مَن كان داخل الحجرة عند اقتحام الباب؟

- لم يكن بالداخل أحد سوى الرجل العجوز الذي لم يكن قد مضى على مصرعه سوى دقائق قليلة.

- كيف استطاع القاتل أن يهرب؟ هل هرب عن طريق النافذة؟

قال المفتش: أستطيع أن أُقسِم على أنه لم يفعل ذلك، ولكن انظر إلى المفتاح يا سيدي.

ثم أخرج المفتش من جيبه مفتاحاً قدّمه لرئيس الشّرطة الذي أخذ يفحصه بدقة، فلاحظ وجود خدوش على ذراع المفتاح فقال بدهشة: يا إلهي! انظر يا بوارو إلى هذه الخدوش.

فقال بوارو بتمهّل: معنى هذا أن المفتاح أُدير من الخارج، ربما بواسطة كمّاشة عادية حتى يبدو الأمر كأنه انتحار ما دام أن الباب مغلَق ولا يوجد أحد بالداخل.

فقال سادغن: هذه هي الفكرة يا سيد بوارو.

فهزّ بوارو رأسه قائلاً: وماذا بشأن الفوضى السائدة في الحجرة؟ هذا وحده ينفي فكرة الانتحار، ومن المؤكّد أن القاتل كان يفكّر في ترتيب الحجرة قبل فراره.

فقال سادغن: لم يكن لديه الوقت الكافي يا سيد بوارو، فلعله كان يطمع في مفاجأة العجوز ولكن دار بينه وبين القتيل صراع سمعه كل أفراد الأسرة فأسرعوا إلى أعلى، لذا لم يسمح الوقت للقاتل بأكثر من إدارة المفتاح من الخارج.

فقال بوارو مؤمّناً: هذا صحيح، ولكن لماذا لم يترك السّلاح؟

فقال جونسون: عدم وجود السلاح ينفي فكرة

الانتحار، وهذا خطأ جسيم ارتكبه القاتل.

قال سادغن بغباء: المجرمون يرتكبون مثل تلك الأخطاء عادة.

فتنهّد بوارو وهو يقول: بالرغم من كل أخطائه فقد تمكّن من الفرار.

- لا أظن أنه أفلت تماماً.

فسأله بوارو: هل تعني أنه لا يزال موجوداً بالبيت؟

قال المفتش: بكل تأكيد، وهذا ما سوف نتوصّل إليه، فنحن لم نستجوب أحداً بعد.

فسأله الكولونيل باهتمام: هل لديك قائمة بأسماء الأشخاص الموجودين في المنزل؟

قال سادغن: نعم يا سيدي، هذه هي القائمة التي حصلتُ عليها من رئيس الخدم، وأسماؤهم هي: السيد والسيدة ألفريد لي، والسيد جورج لي عضو البرلمان وزوجته، والسيد هاري لي، والسيد والسيدة ديفيد لي، والآنسة بيلار أسترافادوس، والسيد ستيفن فار. أمّا بالنسبة للخدم فهُم: إدوارد تريسليان كبير الخدم، ووالتر شامبيون، وإميلي ريفر الطاهية، وكويني جونز مساعدة الطاهية، وغلاديس سبنت وجريس بست وبياتريس

موسكومب وجوان كينشي، ثم سدني هوربري الخادم الخاص.

فسأله جونسون: كم عدد أفراد الأسرة الذين يقيمون في البيت؟ وكم عدد الوافدين؟

– يقيم السيد والسيدة ألفريد بصفة دائمة، والباقون جاؤوا لقضاء فترة عيد الميلاد.

– أين هم الآن؟

– طلبتُ منهم البقاء في غرفة الجلوس حتى أكون مستعدّاً لاستجوابهم.

– من الأفضل أن نتوجّه إلى الطابق العلوي الآن لنلقي نظرة على مكان ارتكاب الجريمة.

كان الطبيب الشّرعي لا يزال يفحص الجثة، وقد أكّد أن القتل تمّ بواسطة قطع عنق العجوز. وكانت الغرفة في حالة فوضى شاملة في حين يلطّخ الدّم بعض قطع الأثاث، وانحنى بوارو على الأرض يفحص كل شيء بعناية فسأله الكولونيل: هل استرعى انتباهك شيء معيّن؟

فتنهّد بوارو وهو يقول: بالرغم من ضعف هذا الرجل إلاّ أن القاتل استخدم العنف بطريقة ملفتة للنظر، كما أن الدّم يلطّخ كل شيء، المقاعد والمنضدة والسجادة، وهذا يذكّرني بشعائر التلطيخ بالدم.

فنظر المفتش سادغن إلى وجهه بدهشة ثم قال: هذا أمر غريب! هذا ما قالته السيدة أيضاً.

فسأله بوارو بسرعة: أيّ سيدة؟ وما الذي قالته؟

- السيدة لي، السيدة ألفريد لي. لقد وقفَت بجوار الباب وقالت بصوت أقرب إلى الهمس: مَن كان يتصوّر أن في العجوز كل هذا القدر من الدّم؟

فقال بوارو هامساً: هل قالت ذلك؟ إنها نفس كلمات السيدة ماكبث. هذا أمر عجيب حقاً!

-٦-

كان الكولونيل جونسون والمفتّش سادغن وبوارو في غرفة المكتب الصغير في انتظار ألفريد لي وزوجته، وقد قدّم رئيس الشّرطة نفسه وقام بواجبات التعارف. كان ألفريد لي في حالة يُرثى لها، كان زائغ النظرات تدعمه زوجته حتى لا يتعثّر، ولكن ألفريد بدأ يتماسك قليلاً حين طلب منه جونسون أن يتحدّث عن ضيوفه، السيد والسيدة جورج لي والسيد والسيدة ديفيد لي.

فقال ألفريد: إنهما شقيقاي الأصغر مني سناً وزوجتاهما، وقد جاؤوا لقضاء إجازة عيد الميلاد، وكذلك هاري شقيقي أيضاً.

– وماذا بشأن الضيفين الآخرين الآنسة أسترافادوس والسيد فار؟

– الآنسة أسترافادوس هي ابنة أختي، أمّا السيد فار فهو ابن الشّريك السابق لأبي في جنوب إفريقيا.

– إنه صديق قديم، أليس كذلك؟

فتدخّلت زوجته قائلة: في الواقع نحن لم نرَه قبل أمس.

– ولكنكم دعوتموه إلى قضاء عيد الميلاد، أليس كذلك؟

تردّد ألفريد برهة والتفت نحو زوجته ثم قال: لقد ظهر السيد فار فجأة بالأمس، وحين علم أبي أنه ابن شريكه السّابق أصرّ على بقائه معنا ليقضي فترة العيد.

فسأله جونسون: وماذا بشأن الخدم؟

وأجاب ألفريد: تريسليان يخدم في القصر منذ زمن طويل، والجميع موضع ثقة فيما عدا جوان التي تبدو غريبة الأطوار بعض الشيء، وهوربري الممرّض الخاص بأبي والذي لا نعرف عنه سوى القليل.

ثم سأله الكولونيل عن آخر مرة رأى فيها أباه فقال ألفريد: في السادسة بعد تناول الشاي قضيتُ معه فترة قصيرة، كما ألقيتُ عليه تحية المساء لأن من عادته

تناول وجبة عشاء خفيفة في السابعة ونادراً ما كان يقابل أحداً بعد ذلك. ثم تناولنا العشاء في الثامنة، وبعد العشاء ذهبت أنا وزوجتي مع بقية السيدات إلى غرفة الاستقبال، وبينما كنا جالسين هناك سمعنا جلبة قوية في الطابق العلوي، أصوات مقاعد تنقلب والأواني الصينية تتحطّم، ثم... يا إلهي! لا تزال تدوّي في أذني صرخة أبي! صرخة طويلة فظيعة، صرخة رجل يُحتَضر!

ثم غطّى وجهه بيديه وأخلد إلى الصمت، فقال مدير الشرطة: وماذا حدث بعد ذلك؟

قال ألفريد: تسمّرنا في أماكننا لحظة، ثم أسرعنا إلى الطّابق العلويّ لنجد باب الغرفة مغلقاً من الداخل فاضطُررنا إلى تحطيمه لنرى المنظر البشع.

فسأله جونسون: مَن كان معك عند سماع الصّرخة؟

- دعني أتذكّر، كان معي أخي هاري.

- ألم يكن معكما شخص آخر؟

- لم يكن معنا أحد.

فسأل جونسون: وأين كان بقيّة الرجال؟

- كان أخي جورج قد ذهب ليتحدّث في الهاتف، ثم بدأنا نخوض في بعض المسائل العائلية، وعندئذ استأذن

السيد فار بطرقة مهذّبة.

- وماذا بشأن أخيك ديفيد؟

فقال ألفريد: لا أذكر متى خرج.

وحينئذ سأله بوارو برقّة: إذن فقد كنتما تتناقشان في بعض المسائل العائلية، أليس كذلك؟

- بلى، هو كذلك.

وحاولَت ليديا أن تهبّ لنجدة زوجها ولكن بوارو أشار لها بيده قائلاً: عفواً يا سيدتي، يقول زوجك إن السيد فار خرج لأنه رأى الحديث يدور حول المسائل العائلية، ومع هذا لم يكن ديفيد وجورج موجودَين، ومعنى هذا أن الحديث العائلي كان يجري بين شخصين فقط من أفراد العائلة.

فقالت ليديا: لقد كان هاري غائباً عن البيت منذ سنوات بعيدة، ومن الطبيعي أن يجري بينه وبين زوجي حديث طويل.

ثم تدخّل جونسون قائلاً: ألم تلاحظ أحداً آخر في أثناء صعودك إلى الطابق العلوي؟

فأجاب ألفريد: أنا لا أتذكّر؛ فقد كان كل واحد منا يأتي من اتجاه مختلف ولم ألاحظ شيئاً من فرط اضطرابي.

ثم غيّر الكولونيل دفّة الحديث إلى موضوع الماسات المسروقة فتأكّد لديه أن ألفريد وزوجته لا يعرفان شيئاً عن موضوع السرقة.

عندئذ سألت ليديا: هل هذا هو الدافع لارتكاب الجريمة؟

فقال الكولونيل: هذا ما سوف نحاول الكشف عنه. هل لديكِ أدنى فكرة عن السارق يا سيدة لي؟

فهزّت رأسها قائلة: جميع الخدم أمناء وليست لديهم الفرصة لدخول الحجرة، ولكن الشخص الوحيد الذي يُسمَح له بدخولها هو الممرّض الخاص هوربري.

ثم طلب الكولونيل جونسون من السيدة ألفريد أن تدلي بما حدث فقالت: كنا جميعاً في غرفة السيد لي بعد الظهر قبل تناول الشاي، وكانت تلك آخر مرة رأيتُه فيها.

- أين كنتِ عندما وقعت الجريمة؟

- في غرفة الاستقبال.

- هل سمعتِ الصّراخ؟

فقالت ليديا: أعتقد أنني سمعتُ صوت وقوع شيء ثقيل.

- ولكنكِ سمعت الصّرخة، أليس كذلك؟

- بلى، سمعتها، وكانت صرخة مخيفة؛ بل كانت أشبه بصوت روح تتعذّب في الجحيم، فأدركتُ للتوّ أن شيئاً فظيعاً قد حدث، وحينئذ أسرعتُ وتبعت زوجي وهاري إلى الطابق العلوي.

فسأله الكولونيل: مَن الذي كان موجوداً في غرفة الاستقبال في تلك اللحظة؟

- لا أتذكّر تماماً. أعتقد أن ديفيد كان في الحجرة المجاورة يعزف على البيانو وأن هيلدا انضمّت إليه.

- وماذا بشأن السيدتين الأخريين؟

قالت ليديا ببطء: توجّهت ماغدولين إلى الهاتف ولا أدري أين كانت بيلار.

قال بوارو بهدوء: معنى هذا أنكِ كنت وحدك في غرفة الاستقبال، أليس كذلك؟

- بلى، أعتقد أن هذا ما حدث.

ثم قال الكولونيل إنه يكتفي بهذا القدر، وطلب من السيد ألفريد الانصراف وإرسال الأشخاص الآخرين الواحد بعد الآخر. وبينما كان ألفريد يهمّ بمغادرة الحجرة تراجع بغتة فواجه بوارو واعتذر لأنه لم يتذكّر أنه هيركيول بوارو المخبر المشهور، ثم طلب منه بإلحاح أن يتولّى التحقيق في القضية مهما كانت التكاليف حتى ينتقم لأبيه.

وأمسكت ليديا بذراعه لتسحبه إلى الخارج وهي ترمق بوارو بنظرات حادّة، فقال بوارو بهدوء: مَن كان يظنّ أن في العجوز كل هذا الدم؟

ثم قال بصوت هامس: هل أنتِ التي قلت ذلك يا سيدتي؟

فقالت ليديا: نعم، أذكر ذلك، وقد كان منظراً بشعاً.

ثم غادرت الغرفة بهدوء وزوجها يسير بجوارها.

دخل جورج لي بعد ذلك، وكان من رأيه أن القاتل مجنون خرج لتوّه من مصحّة للأمراض العقلية، فسأله الكولونيل: كيف كان باستطاعة هذا المجنون الدخول إلى المكان ثم مغادرته دون أن يراه أحد؟

- هذه هي مهمّة الشرطة.

- لقد أكّد سادغن أن أبواب القصر كانت مغلقة وأنه فتّش المكان جيداً بما لا يترك مجالاً للشك في أن أحداً لم يتسلّل إلى المكان من الخارج.

وحين سُئل جورج عن مكان وجوده ساعة سماع الصّرخة قال إنه كان قد فرغ لتوّه من اتصال هاتفي بوكيل الدائرة الانتخابية، ثم قال عن الصّرخة إنها أشبه بالغرغرة أو صوت اختناق إنسان يُحتَضر.

- هل رأيتَ شقيقيك السيد ألفريد والسيد هاري؟

- لا، لا ريب أنهما سبقاني بالصعود إلى الطابق العلويّ.

- هل كنت على علم بأن والدك يحتفظ ببعض الماس الخام في خزانة حجرة نومه؟

- نعم، وكنتُ أقول له دائماً إن ذلك تصرّف غير عاقل. هل كان قتْلُه بسبب تلك الماسات؟

قال جونسون: ألم تبلغك أنباء اختفاء تلك الماسات؟

- بلى، بلغَتني. إذن هذا هو الدافع، أليس كذلك؟ أنا لا أكاد أفهم شيئاً!

فقال بوارو: نحن أيضاً في حيرة تامة.

-٧-

دخل هاري إلى الحجرة وهو يمشي مختالاً، ورغم ضخامته وضآلة حجم أبيه فقد لاحظ بوارو الشّبه الكبير بينهما، كما لاحظ أن هاري عصبيّ يُخفي تحت مظهره الهادئ بركاناً ثائراً، فسأله بوارو: أعتقد أنك عُدت مؤخَّراً من الخارج، أليس كذلك؟

فقال هاري على الفور: بلى، لقد وصلتُ إلى

إنكلترا منذ أسبوع.

- هل أقمتَ في الخارج مدة طويلة؟

فرفع هاري ذقنه وهو يضحك عالياً ثم أجاب قائلاً: يجب أن تسمع الحقائق مني مباشرة قبل أن تسمعها من أيّ شخص آخَر. أنا الابن الضالّ، وقد عشتُ عشرين عاماً بعيداً عن هذا البيت.

- ولكنك عُدت الآن. هل تستطيع أن تخبرنا عن السبب؟

فقال هاري: مللتُ حياة التشرّد واستجبتُ لرغبة أبي الذي عرض عليّ العودة.

- وهل كانت هذه هي رغبة أبيك؟

- نعم، لقد شعر أبي بالملل من أخي ألفريد؛ فهو شخصية تثير الملل حقاً، أضِف إلى ذلك أن أبي كان توّاقاً إلى صحبتي من جديد.

ثم مضى هاري يتحدّث بصراحة عن عدم ترحيب أخيه بعودته والحديث الذي دار بينهما ورأيه في أخيه الذي ينفّذ آراء أبيه دون أيّ اعتراض، ثم قال هاري ضاحكاً: وأصدُقكم القول إن قلبي لم يتحطّم لمصرع أبي؛ فأنا لم أرَ الشيطان العجوز منذ صباي، ولكنه أبي على أي حال وقد قُتل وأنا على استعداد للثّأر من القاتل؛

فالرغبة في الثّأر تجري في عروقنا نحن أفراد أسرة لي ولا نستسلم بسهولة.

فقال سادغن: لك أن تطمئنّ يا سيد لي إلى أن الشّرطة لن تتوانى عن البحث عن المجرم وتقديمه إلى العدالة.

ثم سأله الكولونيل جونسون: هل لديك فكرة عن شخصية القاتل يا سيد لي؟

فقال هاري: لا، ولكنني لا أعتقد أنه إنسان من الخارج، ولا أستطيع أن أوجّه الاتهام إلى واحد من الخدم رغم أن هوربري تحيط به بعض الشبهات، ولكنني علمتُ أنه ذهب إلى إحدى دُور العرض. وإذا استعرضنا الآخرين، ولنبدأ بستيفن فار، فليس من المعقول أن يأتي من جنوب إفريقيا ليقتل رجلاً غريباً، ثم لا يبقى أمامنا سوى أفراد العائلة، أمّا ألفريد فكان يحبّ أباه أكثر من نفسه، وجورج ليست لديه الشجاعة، وديفيد إنسان رقيق المشاعر يغمى عليه لو نزف إصبعه. أمّا الزوجات فليس من المعقول أن تُقدِم النساء على قَطع رقبة رجل بهذه الوحشية، فمَن الذي ارتكب الجريمة إذن؟ هذا أمر محيّر حقاً!

فسأله الكولونيل عن آخر مرة رأى فيها أباه فقال: بعد تناول الشاي، وكان قد تشاجر مع ألفريد وزوجته بسببي؛ فقد كان الرجل العجوز مولَعاً بالشّجار وخلق

المتاعب، ولهذا أخفى خبر استدعائه لي ليفاجئ الجميع، وكان هذا أيضاً سبب حديثه عن تغيير الوصية.

فتمتم بوارو بدهشة: إذن فقد تحدّث أبوك عن تغيير الوصية، أليس كذلك؟

- بلى، وقد ذكر ذلك أمام الجميع، وكان يراقبنا باهتمام ليرى ردّ الفعل على وجه كل واحد منا، وطلب من المحامي على مسمع منا أن يأتي بعد العيد ليغير الوصية.

فسأله بوارو: وما هي التعديلات التي كان ينوي وضعها؟

- لم يصرّح العجوز الماكر بذلك، ولكنني أعتقد أن التعديل كان لصالحي ولصالح بيلار أيضاً.

- أين كنتَ في اللحظة التي لقي فيها أبوك مصرعه؟

- مع أخي ألفريد في غرفة المائدة، وكنا نتجادل حين سمعنا الجلبة في الطابق العلوي، وقد كان يبدو أن صراعاً يجري بين عشرة رجال، ثم صرخ أبي وكان صوته كالخنزير المذبوح، فأسرعنا إلى غرفته وكان الباب مغلَقاً مما اضطرّنا إلى تحطيمه، ولكن لم يكن في الداخل أحد.

فقال المفتش سادغن باهتمام: هل كان الباب مغلَقاً من الخارج؟

قال هاري بلهجة التأكيد: ماذا؟! أستطيع أن أقسم لك على أن المفتاح كان موجوداً في الداخل.

قال بوارو هامساً: هل لاحظتَ ذلك؟

فقال هاري بحدّة: أنا قويّ الملاحظة وهذه عادتي.

ثم طلب منه الكولونيل أن يرسل الشخص التالي فخرج هاري بثبات دون أن ينظر إلى الوراء، وسأل رئيس الشرطة مساعده عن رأيه في هاري فقال سادغن: إنه خائف من شيء ما، وأنا أتساءل عن سرّ خوفه.

-٨-

دخلت ماغدولين إلى الحجرة بتردُّد فتعلّقت أبصار الرجال الثلاثة بها متأمّلين هيئتها، فقد كانت شابة صغيرة جميلة مذعورة، ثم طلب منها الكولونيل جونسون الجلوس فجلست وهي تقول: يا له من أمر بشع! أنا خائفة جداً.

فقال الكولونيل: أعلم أنها صدمة قوية، ولكننا نريد أن نسمع ما حدث هذه الليلة.

فقالت ماغدولين باضطراب: لقد وصلتُ مع زوجي بالأمس فقط لقضاء عيد الميلاد، ويا ليتني لم أفعل! أنا لا

أعرف عائلة جورج تمام المعرفة حيث إنني لم أرَ السيد لي سوى مرتين، ولكنني رأيت ليديا وألفريد مرّات كثيرة طبعاً، ومع ذلك فهُم غرباء بالنسبة لي، أمّا ما حدث الليلة فهو أمر فظيع!

فسألها جونسون على الفور: فظيع؟ لماذا؟

- لقد كانوا في أشدّ حالات الغضب.

- مَن الذي كان غاضباً؟

- الجميع، وأنا لا أقصد بهذا جورج؛ فلم يقُل له أبوه شيئاً، ولكن الجميع...

- ما الذي حدث على وجه التحديد؟

- عندما وصلنا جميعاً كان العجوز يتحدّث في الهاتف مع المحامي، كان يحدّثه عن الوصية، وكان ألفريد غاضباً، وأعتقد أن السّبب في ذلك كان مجيء هاري ليعيش في البيت، كما أعتقد أن هاري قد ارتكب شيئاً فظيعاً منذ زمن طويل. ثم تكلّم العجوز عن زوجته التي ماتت منذ زمن بعيد وقال إن عقلها كان كعقل حشرة، فقفز ديفيد من مكانه معترضاً وكأنه يريد أن يقتله. آه، يا إلهي! ماذا قلت؟

فقال لها الكولونيل مهدّئاً: لا تقلقي، كان هذا مجرّد ثرثرة.

ثم تابعت ماغدولين كلامها قائلة: وقامت هيلدا زوجة ديفيد بتهدئة العجوز، ثم قال الأب إنه لا يريد أن يرى أحداً في تلك الليلة ولهذا غادرنا الحجرة.

- أين كنتِ وقت وقوع الجريمة؟

- دعني أتذكّر. لقد كنتُ أُجري اتصالاً هاتفياً.

ثم تدخّل المفتش سادغن في الحديث قائلاً: هل كان معكِ أحد في الحجرة؟

- لا، كنتُ وحدي تماماً، ثم سمعتُ الصّرخة الفظيعة فهرول الجميع إلى الطابق العلوي وحطّموا الباب. لن أنسى ما حدث أبداً.

فسألها الكولونيل عمّا إذا كانت تعرف شيئاً عن الماسات التي يحتفظ بها السيد لي في غرفته أم لا، فقالت إنها لا تعرف شيئاً، فشكرها الكولونيل طالباً منها أن ترسل ديفيد لي شقيق زوجها.

وبعد خروجها قال: حسناً، قد بدأنا نمسك بعض الخيوط. لقد كان جورج لي يتحدّث في الهاتف عندما سمع الصّرخة، وكذلك كانت زوجته تتحدّث في الهاتف في نفس الوقت وهذا أمر غير معقول! ما رأيك يا سادغن؟

فقال المفتش ببطء: لا أريد أن أطعن في أقوال تلك

السيدة، ولكن رغم اقتناعي بأنها لا تتوانى عن استنزاف آخر قطعة نقود يملكها زوجها إلاّ أنها ليست من الطّراز الذي يقطع رقبة رجل عجوز.

وإجابة على نفس السؤال قال بوارو: الشيء الذي أريد أن أقوله هو أن شخصية قاتل السيد لي العجوز قد بدأت تتكشّف لنا وهذا هو بيت القصيد.

فبدت الحيرة على وجه سادغن وسأل بوارو عمّا يعنيه فقال بوارو بصوت حالم: توجد في العادة رابطة بين شخصية القتيل وأسباب ارتكاب الجريمة، أعني أن سيميون لي كان رجلاً من طراز خاصّ، كان يطلِق قُوىً معيّنة فكانت تلك القوى هي سبب موته في النهاية. أمّا الملاحظة الأخرى فهي أن العجوز تعمّد دعوة الجميع ليستمعوا إلى حديثه الهاتفي مع المحامي ليستمتع باللّعب بأعصابهم وهو يحرّك فيهم شهوة المال، وما كان ليترك واحداً من أفراد الأسرة، ولا شك أنه وجّه الإهانات إلى الجميع ولم يستثنِ أحداً، ولكن لماذا لم تذكر ماغدولين ما قاله العجوز لزَوجها؟!

وقطع دخول ديفيد الحديث الدائر، وكان هادئاً فجلس على أحد المقاعد في انتظار توجيه الأسئلة إليه، فقال له الكولونيل جونسون: سمعتُ أن اجتماعاً عُقد بغرفة أبيك بعد ظهر اليوم. هل هذا صحيح؟

- نعم، ولكنه لم يكن بصورة رسمية، أعني أنه لم

يكن اجتماعاً عائلياً بالمعنى المفهوم.

- ما الذي دار في الاجتماع؟

- كان مزاج أبي مضطرباً، فأنت تعلم أنه رجل عجوز مُقعَد، ويبدو أنه جمعنا بهدف أن يصبّ علينا غضبه.

فقال جونسون: هل تذكر الكلمات التي قالها؟

فقال ديفيد: في الواقع كانت كلمات حمقاء، فقد قال إننا جميعاً لا نصلح لشيء وإنه لا يوجد رجل واحد في العائلة وإن بيلار ابنة أختي تساوي رجلَين منا و...

وعندئذٍ توقّف ديفيد عن الحديث فقال له بوارو: أرجوك أن تستمرّ يا سيد لي وحاول أن تتذكّر الكلمات بنصّها.

قال ديفيد بعد تردّد: قال إنه يتمنّى أن يكون قد أنجب في مكان آخَر من العالَم أبناء أفضل منا حتى لو كانوا أبناء غير شرعيين.

فمال المفتش سادغن بجسمه قليلاً إلى الأمام وهو يقول لديفيد: هل وجّه أبوك حديثاً خاصاً لجورج؟

قال ديفيد: نعم، قال له إنه سيخفّض الإعانة التي يرسلها إليه مما سبّب لجورج الانزعاج، ثم أضاف أبي أن على زوجة جورج أن تقتصد في نفقاتها.

قال بوارو: لا شك أن تلك الكلمات سبّبَت الضيق لماغدولين أيضاً، أليس كذلك؟

فقال ديفيد: بلى، بالتأكيد قد سبّبت لها الضيق.

- هل ذكر والدك شيئاً عن زوجته الراحلة، والدتك؟

احمرّ وجه ديفيد وارتجفت يداه قليلاً وهو يقول: نعم، لقد كال لها الشتائم.

فسأله جونسون: ماذا قال؟

- لا أذكر تماماً؛ فقد كانت كلمات عابرة.

سأله بوارو: أعتقد أن أمّك كانت تعيسة في حياتها، أليس كذلك؟

فقال ديفيد وهو يضحك ضحكة عصبية: مَن يشعر بالسعادة مع رجل مثل أبي؟! لقد كانت أمّي قدّيسة، لكنها ماتت كسيرة القلب.

سأله جونسون عمّا إذا كان قد سمع عن الماس الخام الذي يحتفظ به أبوه في غرفته فقال ديفيد: هل كان يفعل ذلك؟ كثيراً ما كان يفعل أفعالاً غبيّة كهذه.

قال الكولونيل: أيمكنك أن تحدّثنا عن تحرّكاتك؟

- تحرّكاتي أنا؟ نعم، لقد غادرتُ غرفة المائدة

سريعاً لأنني شعرتُ ببوادر شجار يوشك أن ينشب بين ألفريد وهاري؛ فأنا أكره المشاحنات، ثم دخلتُ غرفة الموسيقى لأعزف على البيانو وظللتُ أعزف حتى وقعَت الجريمة.

- ما الذي سمعتَه على وجه التحديد؟

قال ديفيد باضطراب: أصوات قطع الأثاث وهي تنقلب، ثم صرخة بشعة مثل روح تتعذّب في الجحيم.

فقال الكولونيل: هل كنت وحدك في غرفة الموسيقى؟

- لا، كانت معي زوجتي هيلدا وقد صعدنا معاً إلى الطابق العلوي.

- سؤال أخير، هل تشكّ في شخص معيّن يمكن أن يوجَّه إليه الاتهام؟

قال ديفيد باندفاع: أعتقد أن عدداً كبيراً يتمنّون قتل أبي ولكني لا أستطيع أن أخصّ شخصاً معيّناً.

ثم انصرف مسرعاً وهو يغلق الباب وراءه بعنف.

-٩-

دخلت هيلدا بثبات فتأمّلها بوارو بإعجاب، ثم وجّه إليها الكولونيل جونسون الحديث برقّة قائلاً: أعرف

الظروف العصبية التي مررتِ بها، وفهمتُ من حديث زوجك أن هذه أوّل مرة تأتين فيها إلى القصر.

فأومأت برأسها مؤمّنة، ثم سألها الكولونيل عمّا إذا كانت قد التقت بالسيد لي العجوز من قبل أم لا، فأجابت بقولها: لا، لقد تزوّجتُ ديفيد بعد رحيله عن البيت، وكان راغباً في أن يبتعد عن العائلة، حتى أرسل إليه أبوه خطاباً يدعوه لقضاء فترة عيد الميلاد في القصر.

- وهل استجاب زوجك لتلك الرّغبة؟

- في الواقع أنا التي كنت أُلحّ عليه ليَقبَل، ولم أكن قد التقيتُ بأبيه من قبل ولم أكن أعرف شيئاً عن نواياه.

- وماذا كان الدافع الحقيقي من وجهة نظرك؟

تردّدت هيلدا برهة قبل أن تقول ببطء: لم يساورني الشكّ في أن رغبة الرجل العجوز كانت تتّجه إلى إثارة النزاع لا إقرار السّلم بين أفراد الأسرة؛ فقد كانت تسليته أن يثير الشّجار بين أبنائه.

- وهل نجح في ذلك؟

فقالت هيلدا: نعم، إلى حدّ بعيد.

فطلب منها بوارو أن تروي ما حدث بعد ظهر اليوم فقالت هيلدا: لقد تعمّد أن يستقبلنا وهو يتحدّث هاتفياً مع المحامي طالباً تغيير الوصية حتى يثير الشكوك

في نفوس الجميع.

فقال بوارو بأدب شديد: ليست لي صفة رسمية لتوجيه الأسئلة إليك يا سيدتي، ولكن هل تسمحين لي أن أسألكِ عن أفكارك بالنسبة لتغيير الوصية؟

فابتسمت هيلدا ابتسامة خفيفة وقالت: لقد تزوّجَت جنيفر شقيقة زوجي بإسباني، وقد وصلت ابنتها مؤخّراً، وهي فتاة لطيفة كما أنها الحفيدة الوحيدة في الأسرة، قد أُعجب السيد لي العجوز بها وأعتقد أنه كان عازماً على أن يترك لها جزءاً من ثروته.

- ألم تقابلي شقيقة زوجك؟

- بلى، قابلتها، وقد مات زوجها في ظروف غامضة وماتت هي الأخرى منذ عام فأصبحَت ابنتها يتيمة الأبوين، ثم تلقّت دعوة من جَدّها كي تأتي لتعيش معه في إنكلترا.

فسألها بوارو: هل رحّب أفراد الأسرة بقدومها؟

- أعتقد أن الجميع أحبّوها؛ فقد أسعدهم استقبال دم شاب يعيش في القصر.

فقال بوارو معتذراً: آسف على أنني حولت دفّة الحديث يا سيدتي.

ثم استأنفت هيلدا حديثها قائلة: عندما فرغ السيد لي

من حديثه الهاتفي قال لنا ضاحكاً: لماذا أراكم جميعاً واجمين؟ ثم أخبرنا بأنه مُتعَب ويريد أن ينام مبكّراً وبأنه لا يريد أن يقابل أحداً الليلة لأنه يريد أن يكون منتعشاً في العيد، ثم أذكر أنه قال شيئاً عن روعة اجتماع الأسرة الكبيرة في عيد الميلاد، ثم بدأ يتكلّم عن المال قائلاً إنه سيتحمّل في المستقبل مصروفات كثيرة وإن على جورج أن يقتصد في نفقاته كما طلب من السيدة جورج أن تحيك ملابسها بنفسها توفيراً للنفقات، الأمر الذي ساءها بوضوح، ثم أضاف أن امرأته كانت بارعة في استخدام الإبرة.

فسألها بوارو برقّة: أكان هذا كل ما قاله عنها؟

- أظن أنه قال ملاحظة عابرة عن عقلها، وكان ديفيد مولعاً أشدّ الولع بأمّه فغضب لدى سماعه تلك الملاحظة، ثم أخذ العجوز يصرخ في وجوهنا. وأنا أقدّر مشاعره؛ فقد كان محنقاً لعدم وجود أحفاد من البنين يحملون اسمه، وأعتقد أن هذا الإحساس كان يؤلم نفسه، ثم بدأ فجأة يصبّ نيران غضبه على أبنائه جميعاً قائلاً إنهم عصبة من النساء العجائز أو شيء من هذا القبيل، فشعرتُ وقتها بالأسى من أجلهم.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- كنتُ مع ديفيد في غرفة الموسيقى حين سمعنا قطع الأثاث تُقلَب ثم الصراع الرّهيب الذي أعقبَته تلك

الصرخة الفظيعة في حين كان القاتل يذبحه.

فسألها بوارو بهدوء: هل كانت صرخة بشعة؟ هل كانت مثل روح تُعذّب في الجحيم؟

فقالت هيلدا بتؤدة: بل كانت أسوأ من ذلك وكأنها لم تكن صادرة من روح على الإطلاق. لم تكن صرخة آدمية بل كانت صرخة وحش ذبيح!

-١٠-

جاء الدّور على بيلار التي دخلت بخُطىً متردّدة فقال الكولونيل جونسون: هل أنتِ حفيدة السيد لي التي أرسل يستدعيها من إسبانيا ووصلَت منذ بضعة أيام؟

- هذا صحيح. وقد مررتُ بمغامرات كثيرة في أثناء خروجي من إسبانيا حيث ألقت طائرة قنبلة على السيارة التي كنتُ أستقلّها فلقيَ السائق مصرعه وكان الدّم يتدفّق بغزارة من الموضع الذي كان يحمل رأسه، ونظراً لأنني لا أعرف القيادة فقد مشيتُ حتى تورّمَت قدماي.

- هل حدّثتكِ أمّك عن جدّك؟

- نعم، لقد كانت تقول إنه شيطان عجوز.

فابتسم بوارو وسألها: وماذا كان رأيكِ فيه بعد وصولك يا آنسة؟

قالت بيلار باستخفاف: كان عجوزاً للغاية يجلس في مقعد وجلد وجهه جافّ، ولكنني أحببتُه وأعتقد أنه كان وسيماً جداً في شبابه مثلك.

ووجّهت كلماتها الأخيرة للمفتش سادغن، ثم استقرّت عيناها بعض الوقت على وجهه وهي تتأمّله، فضحك الكولونيل وهو يرى وجه المفتش يحمرّ بشدّة، ثم أردفت بيلار تقول: ولكنّه بالطبع لم يكن في ضخامتك.

فتنهّد بوارو قائلاً لها: هل تحبّين الأشخاص الضِّخام يا آنسة؟

- نعم. لقد كنتُ أحبّ الجلوس معه لأنه كان يخبرني بأشياء كثيرة. لقد كان شخصاً شرّيراً للغاية، وقد روى لي كل الأشياء التي فعلها في جنوب إفريقيا.

- هل حدّثكِ عن الماسات الخام التي كان يقتنيها؟

- نعم، وجعلني أراها وألمسها بيدي، لكنها تبدو كالحصى وشكلها قبيح للغاية.

- هل تعرفين أن تلك الماسات قد سُرقت؟

فقالت بدهشة: سُرقت؟!

- نعم. هل لديكِ فكرة عن السارق؟

- نعم، ربما كان هوربري.

- ولماذا تتّجه شكوكِ إلى هوربري؟

- لأن له هيئة لصّ، فعيناه تدوران من ناحية إلى ناحية ويمشي بخفة القطط، وكل القطط لصوص.

قال الكولونيل: حسناً، لقد سمعتُ أن جَدّك عقد اجتماعاً عائلياً في حجرته بعد ظهر اليوم وأن بعض الكلمات الغاضبة قيلت خلال الاجتماع.

فهزّت بيلار رأسها مؤمّنة وهي تبتسم ثم قالت: كان شيئاً مسلّياً للغاية. لقد استطاع جدّي أن يغضبهم جميعاً ويثير حنقهم بشكل عجيب.

- هل شعرتِ بالسرور لذلك؟

قالت بيلار: نعم، يسعدني أن أرى الناس غاضبين؛ فأنا أحبّ ذلك كثيراً، ولكنهم لا يغضبون في إنكلترا مثلما يحدث في إسبانيا، فهناك يستلّون السكاكين وهم يسبّون ويلعنون، أمّا هنا في إنكلترا فلا يفعلون شيئاً فيما عدا احمرار وجوههم وغلق أفواههم!

- هل تذكرين ما قيل؟

فترددت بيلار برهة قبل أن تجيب قائلة: لستُ متأكّدة، وأعتقد أن جَدّي قال إنهم لا يساوون شيئاً وإنهم لم ينجبوا أطفالاً، ثم قال إنني أفضل من أيّ واحد

منهم؛ فقد كان يحبّني حبّاً جماً.

- هل تحدّث عن المال أو الوصية؟

- وصية؟ لا، لا أتذكّر.

- ما الذي حدث بعد ذلك؟

- خرج الجميع فيما عدا هيلدا زوجة ديفيد، وخرجتُ أنا لأقابل ستيفن حيث رقصنا على أنغام الغرامافون.

- أتعنين ستيفن فار؟

- نعم، وهو من جنوب إفريقيا وابن الشريك السابق لجدّي، وهو وسيم أسمر اللون ذو عينين جذّابتين.

فسألها الكولونيل: أين كنتِ لحظة وقوع الجريمة؟

قالت بيلار: ذهبتُ مع ليديا إلى غرفة الاستقبال، ثم صعدتُ إلى غرفتي لأضع بعض المساحيق على وجهي، ثم سمعتُ صرخة بعيدة ورأيتُ الجميع يهرولون فتبعتُهم ورأيتهم يحطّمون الباب، ثم وقعَت أبصارنا على المنظر الرّهيب. لقد كان كل شيء محطّماً وجدّي يرقد مقطوع الرّقبة وسط بركة هائلة من الدّم.

فسألها الكولونيل: ألم يزعجكِ منظر الدم؟

فحملقت في وجهه قائلة: ولماذا أنزعج؟! من الطبيعي أن يوجد دم كثير عندما يُقتَل الإنسان. لقد كانت بُقَع الدّم في كل مكان.

وسألها بوارو: هل قال أحدهم شيئاً؟

- قال ديفيد شيئاً مضحكاً، دعني أتذكّر كلماته. نعم، قال: «طواحين الله تسحق ببطء»، أليست الطواحين هي التي تصنع لنا الدقيق؟!

قال الكولونيل: لا أعتقد أننا في حاجة إليكِ الآن يا آنسة أسترافادوس.

خرجَت بيلار مسرعة وعلى فمها ابتسامة ساحرة.

-١١-

أخذ ستيفن فار ينقل بصره بين الثلاثة قبل أن يقول: أخشى ألاّ أستطيع تقديم أيّة معلومات تفيد التحقيق، ولكنني سأبدأ بتعريف نفسي. أنا ابن أبينيزر فار الشريك السّابق للسيد لي بجنوب إفريقيا منذ أربعين عاماً، وقد عاد السيد لي إلى الوطن بعد أن حقّق ثروة طيّبة، كما نجح أبي في عمله أيضاً، وقد أخبرني أبي الذي مات منذ سنتين أنه يجب عليّ زيارة السيد لي في أول زيارة أقوم بها للوطن، وهذا ما فعلتُه. وكنتُ أخشى أن يتجاهلني السيد لي إلا أنه رحّب بي أشدّ الترحيب وأصرّ على بقائي

في عيد الميلاد.

وصمت برهة ثم أردف يقول بخجل: وقابلني الجميع بالترحاب، وكان السيد والسيدة ألفريد غاية في اللّطف. وأنا شديد الأسف لما حدث.

- متى وصلتَ إلى هنا؟

- أمس.

- هل رأيتَ السيد لي اليوم؟

- نعم، لقد تبادلنا بعض الحديث في الصباح، وكان في حالة نفسية طيّبة، وكانت تلك آخر مرة أراه فيها.

- ألم يذكر لكَ شيئاً عن بعض الماسات الخام التي يحتفظ بها في حجرته؟

فردّ ستيفن باستغراب: نعم، لم يذكر لي شيئاً! هل أفهم من ذلك أن الجريمة وقعَت بسبب الماس؟!

فقال جونسون: لسنا متأكّدين بعد. ماذا كنتُ تفعل بعد ظهر اليوم؟

- عندما انصرفَت السيدات من غرفة المائدة بقيتُ لأشرب كأساً من عصير البرتقال، وحين لاحظتُ أن أفراد الأسرة يرغبون في مناقشة بعض المسائل العائلية استأذنتُ وغادرتُ الغرفة، ثم ذهبتُ إلى غرفة مجاورة

واسعة أرضها من خشب الباركيه أشبه بقاعة للرقص، وعثرت على غرامافون وبعض الأسطوانات.

فقال بوارو: ألم يلحق بك أحد إلى تلك القاعة؟

وابتسم ستيفن ابتسامة عريضة وقال: بلى، لحقت بي الآنسة أسترافادوس، وهي شابة جميلة وأفضل شيء وقعَت عليه عيناي منذ وصولي إلى إنكلترا، وظللتُ في تلك القاعة حتى سمعتُ الجلبة فخرجتُ إلى الصّالة لأستطلع الأمر، ثم عاونتُ هاري في تحطيم الباب.

- هل هذه هي كل المعلومات التي لديك؟

- هذا ما أظنّه.

فمال هيركيول بوارو بجسمه إلى الأمام وهو يقول بتؤدة: ولكنني أعتقد أنكَ تستطيع أن تُدلي لنا بأشياء كثيرة يا سيد فار لو أنك رغبتَ في ذلك.

فقال فار بحدّة: ماذا تعني بذلك؟!

- تستطيع أن تزوّدنا بمعلومات هامّة لو أنك حدّثتنا عن شخصية السيد لي. أنت تقول إنه كان صديقاً حميماً لأبيك وإنهما كانا يتحدّثان كثيراً، فأيّ لون من الرجال صوّره لك أبوك؟

وقال فار ببطء: أظن أنني فهمتُ ما ترمي إليه، أنت تعني كيف كان سيميون لي في الأيام الخوالي، حسناً.

هل تريد مني الصّراحة؟

فقال بوارو: إذا سمحتَ.

- حسناً، لم يكن سيميون لي ممن يتمسكون بالمبادئ الأخلاقية، ولا أعني بذلك أنه كان لصاً، إنما كان ساحراً في شبابه وكريماً للغاية ولم يردّ طالب حاجة قطّ، وكان يشرب ولكن ليس إلى درجة الإفراط، وكان من وجهة نظر النّساء رجلاً جذّاباً حلو العشرة، ولكنه كان إنساناً ميّالاً للانتقام، وقد روى لي أبي قصصاً عديدة عن السيد لي وكيف صبر سنوات طويلة كي يثأر من شخص أساء إليه في الماضي، و...

فتدخّل المفتش سادغن في الحديث قائلاً: هل لديك معلومات معيّنة في هذا الصّدد؟ أعني شيئاً من الماضي يفسّر لنا أسباب ارتكاب جريمة الليلة.

فهزّ ستيفن رأسه نفياً ثم قال: لقد كان له أعداء بالطبع ولكنني لا أعرف حالات معيّنة، هذا فضلاً عن أنني تأكّدتُ من تريسليان أنه لم يدخل القصر اليوم أيّ شخص غريب.

فأضاف بوارو: فيما عداك يا سيد فار.

فالتفت ستيفن فار نحوه باستياء وقال: أهكذا؟! الشّك المعتاد في شخص داخل القصر. قد يكون سيميون لي أساء لأبي ولهذا جئت لأثأر منه. ها أنا ذا قد أخبرتك

عن سبب مجيئي بكل صراحة، فضلاً عن أن صوت الغرامافون يؤيّد قولي كشاهد لأن الاستماع إلى أسطوانة واحدة لا يعطيني الفرصة الكافية لقتل السيد لي والعودة إلى القاعة قبل وصول الآخرين.

فقال الكولونيل جونسون مهدّئاً: نحن لا نوجّه إليك اتّهاماً يا سيد فار. هذا كل ما نحتاجه منك الآن، ولكن نرجو ألاّ تغادر القصر.

فأومأ ستيفن فار برأسه وغادر الحجرة بخطىً سريعة، فقال الكولونيل: تبدو قصّته مقبولة، ومع هذا فقد يكون هو الحصان الأسود، وربما يكون هو الذي سرق الماس واخترع تلك القصّة ليبرّر وجوده في القصر، ومن الأفضل أن تأخذ بصماته يا سادغن وتتحقّق من شخصيته.

فقال المفتش باعتزاز: هذا ما فعلتُه بالنسبة له ولهوربري، كما تحقّقت من ساعة خروجه وإلى أين ذهب وبمن التقى، وسوف أتوجّه إلى المحامي لأطّلع على الوصية، كما أنني سوف أفتّش المكان بحثاً عن السلاح الذي استُخدِم؛ فربما يكون في المكان الذي أُخفيَت فيه الماسات أيضاً.

فردّ الكولونيل برويّة: أعتقد أن هذه الإجراءات تغطّي التحقيق. هل لديك اقتراح معيّن يا سيد بوارو؟

فقال بوارو: أنا أعتقد أن المفتش سادغن قد تصرّف بطريقة رائعة، ولكن هل تسمح لي أن أقوم ببحث خاص؟

فقال الكولونيل: بكل تأكيد. ما خطّتك؟

- خطّتي هي أن أقوم بالحديث بين الحين والحين مع أفراد الأسرة.

فسأله الكولونيل بدهشة: أتعني أنك تريد أن تسألهم مجدّداً؟

- ليس استجواباً بل مجرّد أحاديث عابرة.

فسأله سادغن بقلق: لماذا؟

- لأن الحديث العابر يفتح مجالات كثيرة، فعندما يثرثر الإنسان كثيراً لا يستطيع أن يتهرّب من ذكر الحقيقة.

فقال سادغن: إذن فأنت تعتقد أن بعضهم يكذب، أليس كذلك؟

- كل إنسان يكذب يا عزيزي.

فقال الكولونيل: نحن أمام جريمة وحشيّة وقاتل عنيف، وأنا أرى السيد والسيدة ألفريد بعيدَين عن الشبهات، أمّا السيد جورج فهو عضو البرلمان المحترم وزوجته رقيقة مهذّبة، أمّا ديفيد لي فهو بشهادة أخيه

هاري يفقد الوعي إذا نزف إصبعه وزوجته سيدة حساسة رقيقة. يبقى أمامنا ابنة الأخت الإسبانية والغريب القادم من جنوب إفريقيا. الحسناوات الإسبانيات حارّات الدماء فعلاً، ولكن بيلار لا يمكن أن تقتل جدّها لأنها مستفيدة من حياته بتغيير الوصّية لصالحها، أمّا الاحتمال القائم وهو ستيفن فار فربما كان لصّاً محترفاً جاء من أجل الماس وأنه عندما اكتشف العجوز اختفاء الماس اضطُرّ فار إلى قطع رقبته ليضمن سكوته، أمّا احتجاجه بالاستماع إلى الغرامافون فهو شاهد ضعيف.

فهزّ بوارو رأسه نفياً وهو يقول: يا صديقي العزيز، قارن بين حجم السيد ستيفن فار وبين حجم العجوز النحيل، فلو أن ستيفن أراد أن يقتله لتخلّص منه في دقيقة واحدة ولا أظن أن سيميون لي كان يستطيع مقاومته. هل تتصوّر صراعاً يدور بينهما لبضع دقائق تُقلَب خلاله قطع الأثاث وتتحطّم الأواني الصينية؟

فضاقت عينا الكولونيل جونسون وهو يقول: أتعني أن الذي قتل سيميون لي رجل ضعيف؟

فأضاف مفتش الشّرطة: أو امرأة.

ونظر الكولونيل جونسون إلى ساعته قائلاً إنه سيعود إلى مكتبه، ثم طلب من سادغن التحقّق من المكان الذي كان يوجد فيه كل شخص داخل القصر.

-١٢-

دخل تريسليان كبير الخدم وهو لا يزال يرتعد من أثر الصدمة فقال له بوارو: من الواضح أن الصّدمة كانت شديدة عليك.

فقال تريسليان: أجل يا سيدي. لقد كان المكان ينعم بالهدوء طوال العمر.

فقال بوارو: كان المكان ينعم بالنّظام وليس بالسعادة، أليس كذلك؟

- بلى، أنت على حق يا سيدي.

- هل كانت السيدة لي مريضة؟

- نعم، لقد كانت صحتها معتلّة تماماً.

- هل كان أولادها مولَعين بها؟

- كان السيد ديفيد لي متعلّقاً بها أشدّ التعلّق ولم يحتمل الحياة في القصر بعد موتها.

- وماذا عن السيد هاري؟

- كان شاباً عنيفاً ولكنه طيّب القلب.

ثم حوّل الكولونيل جونسون دفّة الحديث قائلاً: عندما سمعتَ الجلبة من الطابق العلوي لم يكن في غرفة المائدة سوى السيد ألفريد والسيد هاري، أليس

كذلك؟

- أنا لا أستطيع أن أخبرك يا سيدي؛ فقد كان كل السّادة موجودين عندما قدّمت لهم القهوة، وكان ذلك قبل ربع ساعة من الحادث.

- هل كان السيد جورج لي يُجري اتصالاً هاتفياً؟

- أعتقد أن شخصاً كان يتحدّث بالهاتف ولكنني لم أُعِر الأمر اهتماماً.

- هل تعرف أين كانت كل واحدة من السيدات في الوقت الذي ارتفعَت فيه الصّرخة؟

- كانت السيدة ألفريد في غرفة الاستقبال عندما ذهبتُ لأحمل صحفة القهوة، وذلك قبل دقيقة أو دقيقتين من سماع الجلبة في الطابق العلوي.

فسأله بوارو: ماذا كانت تفعل وقتها؟

- كانت تنظر من النافذة، من خلال فُرجة الستار.

- ألم تكن معها إحدى السيدات الأخريات؟

- نعم، لم تكن معها أيّ واحدة منهنّ.

فسأله الكولونيل: هل تتذكّر المكان الذي كان يوجد فيه الآخرون؟

- كان السيد ديفيد في غرفة الموسيقى يعزف اللّحن

الجنائزي، الأمر الذي جعلني أرتعد وأتوجّس شرّاً.

فقال جونسون: بخصوص الممرّض الخاص هوربري، هل تُقسِم على أنه كان خارج القصر في الساعة الثانية؟

فأكّد تريسليان تلك الحقيقة قائلاً إن الجميع شاهدوه وهو يغادر القصر وإنه يتعذّر عليه العودة دون أن يشاهده أحد، ثم روى قصّة تحطيم الفنجان عندما سمع هوربري بوصول المفتّش سادغن وارتياحه حين عرف طبيعة المهمّة التي أقبل المفتش بخصوصها.

ثم نهض تريسليان وانحنى للمفتش قبل مغادرة الحجرة، ولكنه عاد بعد قليل قائلاً: لقد عاد هوربري على التوّ من الخارج.

فقال الكولونيل: أرسلْه إلينا في الحال.

-١٣-

دخل سدني هوربري رابط الجأش قائلاً إنه فوجئ بسماع الخبر الأليم من الخادمة غلاديس، فقاطعه الكولونيل طالباً منه أن يكتفي بالرّد على ما يوجَّه إليه من الأسئلة، فقال عن تحرّكاته: لقد غادرتُ القصر قُبَيل الثامنة فذهبتُ إلى دار عرض سوبيرب حيث شاهدتُ فيلم «حب في إشبيلية القديمة»، وقد شاهدَتني عاملة

الشّباك وموظّف الباب، وقد ذهبتُ إلى دار العرض مع صديقة تُدْعى دوريس باكل، وهي تعمل في شركة الألبان المتحدة. وبعد انتهاء العرض رافقتُ دوريس حتى باب بيتها وعدتُ بعد ذلك إلى القصر مباشرة، وسوف تتأكّد من صدق كلامي. أنا لم أفعل شيئاً، وقد...

فقاطعه جونسون بقوله: نحن لم نوجّه إليك أيّ اتهام.

- أجل يا سيدي، ولكن وقوع الجريمة في المكان الذي يعمل فيه الإنسان ليس بالأمر السارّ.

- منذ متى وأنت في خدمة السيد لي؟

- منذ أكثر من عام يا سيدي.

- هل كنتَ مرتاحاً للعمل؟

- إلى حدّ كبير يا سيدي؛ فالأجر كبير، وإن كان السيد لي صعباً في بعض الأحيان ولكنني اعتدتُ العمل مع الأشخاص المقعَدين.

- ألديك خبرة سابقة في هذا العمل؟

- نعم، مع الميجور ويست والشّريف فينش.

- تستطيع أن تعطي هذه التفصيلات للمفتش سادغن. متى رأيتَ السيد لي تلك الليلة لآخر مرة؟

- نحو السابعة والنّصف يا سيدي، فقد قدّمتُ له عشاء خفيفاً في السابعة ثم ساعدتُه للنوم.

- متى ينام عادة؟

- في الثامنة عندما يكون متعَباً، وفي أحيان أخرى يظلّ أمام المدفأة حتى الحادية عشرة.

- هل تحصل على راحتك الأسبوعية يوم الجمعة بصفة دائمة؟

فقال هوربري: نعم.

- هل كان من عادة السيد لي أن يذهب خلال ساعات النهار إلى أية حجرة أخرى؟

- لا؛ فحجرته واسعة وبها كل ما يحتاج إليه.

- هل دعا أحداً إلى حجرته في تلك الليلة؟

- لم يفعل ذلك بواسطتي.

- إذن فهو لم يكن يتوقّع زيارة أحد من أفراد الأسرة، أليس كذلك؟

- أنا لا أدري؛ فربما يكون قد اتّصل بأحدهم شخصياً.

فسأله بوارو بهدوء: هل زِدتَ من إشعال النار في المدفأة قبل خروجك؟

فقال هوربري: لم يكن ذلك ضرورياً يا سيدي؛ فقد كانت النار مشتعلة بصورة طبيعية.

- هل يستطيع السيد لي أن يفعل ذلك بنفسه؟

- لا، وربما فعل السيد هاري لي ذلك.

فسأله بوارو: هل كان السيد هاري معه عندما ذهبتَ إليه بالعشاء؟

- نعم، وقد خرج لحظة دخولي.

- ماذا كانت طبيعة العلاقة بين الأب وابنه وقتها؟

- كان السيد هاري يبدو متهلّل الأسارير.

- وماذا عن السيد لي؟

- كان هادئاً مستغرقاً في التفكير.

- والآن أريد أن أعرف منك شيئاً آخر يا هوربري، ماذا تعرف عن الماس الذي كان يضعه السيد لي في حجرته؟

- ماس؟! أنا لم أرَ ماساً في غرفته قطّ.

فقال بوارو: كان السيد لي يحتفظ بمجموعة من الماسات الخام، ولا ريب أنك شاهدته وهو يفحصها، أليس كذلك؟

- تلك القطع القريبة من الحصى؟ بلى، لقد رأيتُها

مرة أو مرتين، كما شاهدته يعرضها على السيدة الغريبة أمس.

ثم فاجأه الكولونيل بقوله: لقد سُرقت تلك الماسات.

فقال هوربري بقلق: أرجو ألاّ يتطرّق إلى بالك أنني أنا الذي فعلت ذلك.

- أنا لا أوجّه إليك الاتهام. والآن، هل لديك معلومات أخرى تحبّ أن تُدلي بها؟

- أهي عن الماس أم عن الجريمة يا سيدي؟

- عنهما معاً.

ففكّر هوربري برهة ثم قال: لا أظن يا سيدي.

قال بوارو بلهجة رقيقة: ألم تسمع شيئاً في أثناء فترة عملك يمكن أن يفيدنا؟

فقال هوربري: نعم، أنا لم أسمع شيئاً يا سيدي، فقط كان يوجد بعض الجفاء بين السيد لي العجوز وبعض أفراد العائلة.

- أيّ أفراد؟

- لقد نشبَت بعض المتاعب عند عودة السيد هاري لأن السيد ألفريد لم يكن مرتاحاً لذلك، وقد دار حديث

حول هذا الموضوع بينه وبين أبيه ولم يوجّه إليه الأب اتهاماً بأنه أخذ الماس، وأنا واثق من أن السيد ألفريد لا يمكن أن يقدِم على سرقة الماس.

فمال بوارو بجسمه إلى الأمام وهو يقول بهدوء: كنتُ أظن يا هوربري أنك لا تعرف شيئاً عن سرقة الماس قبل أن نخبرك بذلك الآن، فكيف اكتشفتَ إذن أن السيد لي تنبّه إلى سرقة الماس قبل حواره مع ابنه؟

فامتقع وجه هوربري فقال له المفتش سادغن: لا جدوى من الكذب. نريد أن نسمع منك الحقيقة.

ونكّس هوربري رأسه وهو يقول: لقد سمعتُ السيد لي يتحدّث مع أحد الأشخاص هاتفياً حول هذا الموضوع.

- هل كنتَ معه في الغرفة؟

- لا، ولكنني عندما كنتُ خارجاً من الباب سمعتُ طرفاً من الحديث، مجرّد كلمة أو كلمتين.

فسأله بوارو: ما الذي سمعته على وجه التحديد؟

- سمعته يقول شيئاً عن سرقة الماسات ويقول إنه لا يعرف الفاعل، ثم سمعته يذكر شيئاً عن موعد في الثامنة من مساء اليوم.

فأومأ المفتش برأسه قائلاً: كان يتحدّث معي أيها

الفتى، وكان ذلك بعد الخامسة بقليل، أليس كذلك؟

- بلى، هذا صحيح يا سيدي.

- ولقد انزعجتَ لدى سماعك ذلك الخبر، أليس كذلك؟

فصاح هوربري بانفعال: استمع إليّ يا سيد سادغن، أنا لا أسمح لك بمخاطبتي على هذا النحو؛ فأنا لم أسرق تلك الماسات، وأتحدّاك أن تثبت ذلك. أنا لست لصّاً.

واستمرّ سادغن يتحدّث بنفس اللهجة السابقة قائلاً: هذا ما سوف يكشف عنه التحقيق. تستطيع أن تنصرف الآن.

خرج هوربري على عجل، فقال سادغن بتقدير: لقد أدّيتَ عملاً رائعاً يا سيد بوارو حيث حاصرته بطريقة بارعة، فربما كان لصّاً وربما لم يكن، ولكن الأمر المؤكّد أنه كذّاب من الدّرجة الأولى.

فقال جونسون: السّؤال المطروح الآن هو عن رأينا في الشهادة التي أدلى بها.

ولخّص المفتش الموقف ببراعة قائلاً: نحن أمام ثلاثة احتمالات، الأول هو أن هوربري لص وقاتل، والثاني هو أن هوربري لص وليس قاتلاً، أمّا الثالث فهو أن هوربري شخص بريء. ولدينا الآن أكثر من دليل على

الاحتمال الأول؛ فقد كان يتصنّت إلى الحديث الهاتفي وعلم باكتشاف السرقة وأن العجوز يشكّ فيه، ومن ثَمّ أعدّ خطته فخرج قبل الثامنة ليحصل على شاهد، وكان من السّهل عليه أن يتسلّل من دار العرض ويعود دون أن يفطن أحد إلى ذلك، وكان لا بدّ له من التأكّد من أن الفتاة لن تتخلّى عنه. سوف أتحقّق من الأمر غداً.

فسأل بوارو: وكيف استطاع العودة ودخول المنزل؟

- ربما عاونَته في ذلك إحدى الخادمات.

فرفع بوارو حاجبيه في تساؤل وهو يقول: معنى هذا أنه يضع نفسه تحت رحمة امرأتين وهذه مخاطرة كبيرة، أليس كذلك؟

فقال المفتش: بعض المجرمين يفكّر على هذا النحو. لنناقش الآن الاحتمال الثاني وهو أن هوربري سرق الماسات وخرج ليسلّمها لشريك له، وهذا يجعلنا نعترف بأن شخصاً آخر اختار تلك الليلة لارتكاب الجريمة وهو لا يدري شيئاً عن الماسات المسروقة وتلك مصادفة غير مقبولة. أمّا الاحتمال الثالث فيعني أن شخصاً آخر سرق الماس وارتكب جريمة القتل ونحن مطالَبون الآن بكشف الحقيقة.

قال الكولونيل: كفانا حديثاً هذه الليلة، ومن

الأفضل قبل انصرافنا أن نُلقي نظرة على الخزانة فربما كانت الماسات موجودة ولم تُسرَق.

لكن الحقيبة الجلديّة كانت خالية من قطع الماس الخام، وكان في الخزانة ورقة واحدة تهمّ التّحقيق وهي وصية يعود تاريخها إلى خمسة عشر عاماً، ويوصي فيها العجوز بنصف ثروته لألفريد لي على أن يقسَّم النّصف الثاني بالتساوي بين بقية أبنائه، هاري وجورج وديفيد وجنيفر.

* * *

الفصل الرابع
٢٥ كانون الأول (ديسمبر)

كان الجوّ مشمساً ظهر اليوم التالي، وبينما كان بوارو يسير في الحديقة لمح شبحَين لشابين يسيران معاً وهما يضحكان بالرغم من المأساة التي حدثت في اليوم السابق. لقد كانت بيلار أسترافادوس أحدهما، وظنّ بوارو في البداية أن الشخص الآخر هو ستيفن فار ولكنه اكتشف أنه هاري.

ثم فوجئ هيركيول بوارو بالسيدة جورج لي تقترب منه قائلة: لم يسبق لي أن عشتُ مأساة كمأساة أمس. لقد ارتُكبت الجريمة بطريقة غير إنكليزية!

ثم بدأت تتحدّث عن بيلار والكيفية التي ظهرت بها فجأة، كما روَت لبوارو ما سمعته عن الماضي المشبوه لزوج جنيفر الإسباني، وظل بوارو يستمع إليها في صمت ثم قال لها في النهاية: هل تريدين أن تقولي إن الآنسة أسترافادوس هي التي قَطَعت رقبة جدّها؟

فقالت ماغدولين بتراجع: لا يا سيد بوارو؛ فأنا لم أقل شيئاً من هذا القبيل ولم أقصد ذلك قطّ، ومع هذا فهي شخصية مشبوهة، خاصة وأنها التقطَت شيئاً من الأرض عند اقتحامنا غرفة السيد لي.

صاح بوارو بحدّة: أتقولين إنها التقطَت شيئاً من الأرض؟!

- نعم، بمجرّد دخولنا الحجرة، ولكن المفتّش رآها لحُسن الحظ فطالبها بتسليم ذلك الشيء.

- ماذا كانت طبيعة ذلك الشيء؟

- لا أدري لأنني لم أكن واقفة بالقرب منها، ولكنه كان شيئاً صغيراً للغاية.

فهمس بوارو لنفسه: هذا شيء مثير حقاً!

فقالت ماغدولين بسرعة: أجل، وقد رأيتُ أنه من واجبي أن أخبرك بذلك. سأتركَك الآن لأرى ما إذا كانت ليديا بحاجة إلى المساعدة.

ثم انصرفت ماغدولين وعلى شفتيها ابتسامة شرّيرة. وظلّ بوارو في مكانه شارداً حتى لحق به المفتش سادغن بوجه عابس قائلاً له: صباح الخير يا سيد بوارو. معذرة؛ فأنا لا أستطيع أن أقول في هذه الظروف «عيد ميلاد سعيد».

فسأله بوارو عمّا إذا كان قد توصّل إلى شيء جديد فقال المفتش إنه تحقّق من صدق رواية هوربري؛ فقد أكّدَت له الفتاة أنها كانت بصحبته طوال الوقت، وإنه يصدّق روايتها لأنها لو كانت تكذب لاكتشف ذلك.

فقال بوارو: أجل؛ فلديك خبرة الشّرطي المحنّك.

- هذا صحيح يا سيد بوارو، وإذا كان هوربري بريئاً من دم السيد لي فهذا يجعلنا نحصر شبهاتنا في الآخرين، وأعتقد أن واحداً من أفراد الأسرة هو الذي ارتكب الجريمة.

- أليست لديك فكرة عن ذلك الشخص؟

- كنتُ محظوظاً عند التحقّق من المحادثات الهاتفية التي أُجريَت من القصر. لقد قام جورج لي باتّصال مع وستنغهام في التاسعة إلا دقيقة ولم تستغرق تلك المحادثة أكثر من ستّ دقائق، ولم تكن هناك أيّ مكالمات أخرى فيما عدا تلك المكالمة.

فقال بوارو باهتمام: حسناً، لقد قال لنا السيد جورج لي إنه لم يكَد ينتهي من حديثه الهاتفي حتى سمع الصّرخة بعد عشر دقائق، فأين كان إذن خلال تلك الفترة؟ وتقول السيدة جورج إنها كانت تُجري اتصالاً هاتفياً في حين أنها لم تُجرِ في الواقع أيّ اتصال، فأين

كانت إذن؟

فقال له سادغن إنه رآه يتحدّث معها، فردّ بوارو قائلاً: لقد كانت تحادثني، وقد أقبلَت عن قصد.

فسأله المفتش بقلق: وما الذي قالته لك؟

- أرادت أن تؤكّد على أن طريقة ارتكاب الجريمة ليست إنكليزية واحتمال أن تكون الآنسة أسترافادوس هي المسؤولة، خاصة وأنها رأتها تلتقط شيئاً من الأرض في الليلة الماضية.

فقال سادغن باهتمام: هل هذا ما قالته لك؟

فسأله بوارو: ما ذلك الشيء الذي التقطَته؟

- سوف أُطلعك عليه، وهو الشيء الذي يحلّ الجرائم في الروايات البوليسية فقط، وإذا استطعتَ أن تخرج منه بشيء فأنا على استعداد لاعتزال الخدمة.

ثم أخرج المفتش من جيبه مظروفاً وأفرغ محتوياته في يده، وكانت عبارة عن قطعة صغيرة مثلّثة من المطّاط ووتد خشبي صغير، وبعد أن فرغ بوارو من فحصها قال: لقد انتُزعت هذه القطعة المطّاطية من حقيبة إسفنجية.

فقال المفتش: أجل، من حقيبة في غرفة السيد لي، وقد قطعها أحدهم بمقصّ حادّ، وربما يكون السيد لي هو الذي فعل ذلك، أمّا بالنسبة للوتد فلا أرى له

معنى. تستطيع أن تحتفظ بهما إن شئت.

- لا أريد أن أحرمك منها يا صديقي العزيز.

فقال المفتش: هل تعني شيئاً بالنسبة لك؟

- أعترف لك أنها لا تعني شيئاً. والآن لنعُد إلى موضوعنا الأصلي، أين وصلتَ بالقضية الآن؟

فأخرج المفتش سادغن مفكّرة صغيرة من جيبه قائلاً: فلنستعرض الحقائق، ولنبدأ بالأشخاص الذين يُستبعَد ارتكابهم للجريمة وهُم: ألفريد وهاري لي لأن لدى كل منهما شاهد، كما نستبعد السيدة ألفريد أيضاً؛ فموقف هؤلاء الثلاثة واضح، أمّا بالنسبة للآخرين فلديّ قائمة بمكان وجودهم لحظة وقوع الجريمة، فجورج لي كان يُجري اتصالاً هاتفياً، والسيدة جورج لي أيضاً كانت تُجري اتصالاً هاتفياً حسب قولها، وديفيد لي كان يعزف على البيانو وتؤيّد ذلك زوجته، كما أن السيدة ديفيد لي كانت في غرفة الموسيقى بشهادة زوجها، وكانت الآنسة أسترافادوس في غرفتها ولا أحد يشهد على ذلك، أمّا ستيفن فار فكان يستمع إلى الغرامافون ويؤيّد سماع الصوت ثلاثة من الخدم.

ثم أعاد له بوارو المفكّرة قائلاً: وماذا بعد؟

- يستطيع السيد والسيدة جورج لي أن يرتكبا الجريمة، ونفس الشيء ينطبق على بيلار، كما يستطيع

السيد أو السيدة ألفريد أن يرتكبا الجريمة ولكنهما لم يرتكباها.

- وماذا عن السيد فار؟

- هو أيضاً يمكنه أن يرتكب الجريمة؛ فموضوع الغرامافون ليس شاهداً قوياً، ولكنني لا أعتقد أن مرتكب الجريمة غريب عن العائلة.

فقال بوارو بسرعة: أتّفق معك على أنها مسألة عائلية وأن الدّافع هو الكراهية والمعرفة.

- أجل يا سيد بوارو. والآن لنستعرض الدّوافع التي تساعدنا على استبعاد البعض، فالآنسة أسترافادوس لن تستفيد شيئاً من موت سيميون لي، ولعلك توافقني على هذا الرأي إلاّ إذا كنتَ مقتنعاً بنظرية صديقتك السيدة جورج.

فقال بوارو على الفور: لا تقُل إنها صديقتي وإلاّ قلتُ إن الآنسة أسترافادوس التي تراك رجلاً وسيماً صديقتك.

وضحك بوارو في أعماقه وهو يرى وجه سادغن يحمرّ، ثم أردف قائلاً: أنا شديد الإعجاب بشاربك الكثّ. تُرى أيّ صبغة تستخدمها؟

- أنا لا أستخدم أصباغاً، هذا لون شاربي الطبيعي.

ثم تجاهل سادغن تلك الملاحظة واستأنف حديثه قائلاً: هناك شخص آخر له مصلحة في بقاء سيميون حيّاً وهو هاري لي لأنه ينتظر تغييراً في الوصية لصالحه. بقيَ أمامنا الآن جورج لي وزوجته وديفيد لي والسيدة لي، وكل واحد من هؤلاء سيستفيد من موت العجوز، فضلاً عن أن الأب هدّد ابنه بتخفيض إعانته، وبذا يكون لدى جورج الدّافع والفرصة، وكذلك السيدة جورج سمعَت العجوز يتحدّث مع المحامي فقامت بعمل اللاّزم بسرعة، أمّا بالنسبة لديفيد لي فلا أظنه من الطراز الذي يجري وراء المادّة؛ فهو خيالي حالم بطبعه ولكنه في نفس الوقت إنسان غريب الأطوار، أمّا بالنسبة للدّافع لارتكاب الجريمة فنحن أمام ثلاثة احتمالات، وهي الوصية والماس والكراهية.

فقال بوارو بهدوء: هل وضعتَ في تقديرك كمية الدم الغزيرة التي أُهدرت؟

- لقد كانت في ذهني طوال الوقت.

- هذا يعود بنا إلى تقاليد العصور القديمة، التضحية بالذبح وتلطيخ الضحية بالدم.

فقطب سادغن وهو يقول: هل تريد أن تقول إن مرتكب الجريمة مجنون؟

- يا صديقي العزيز، توجد في أعماق الإنسان كل

الغرائز المتأصّلة دون أن يدري، ومنها الشهوة للدم والرغبة في التضحية.

- ولكن ديفيد إنسان مسالم.

- أنت لا تفهم علم النفس. ديفيد إنسان يعيش في الماضي، رجل لا تزال ذكرى أمّه حية في داخله ولا يستطع أن ينسى إساءة أبيه لها. دعنا نقول إنه جاء بغرض الصفح، ولكنه عندما وقف أمام جثة أبيه قال: طواحين الله تسحق ببطء.

فقال المفتش بامتعاض: لا تتحدّث بهذه الطريقة يا سيد بوارو؛ فكلماتك تثير الرعدة في بدني. لقد استمعتَ إلى رأيي في القضية وأريد أن أسمع رأيك الآن.

- لديّ أفكار لم تتضح بعد، ولكنني أعود دائماً إلى نقطة أساسية وهي شخصية القتيل. من أيّ طراز كان سيميون لي؟

- لا يحيط الغموض بهذه النقطة، فبالرغم من أنني لست من أهالي هذه المنطقة بل من المحافظة المجاورة إلا أن سيميون لي من الشخصيات المعروفة للجميع، وقد سمعتُ عنه الكثير.

- ماذا سمعت؟

- سمعتُ أنه شخص حادّ الطباع إلاّ أنه كريم سخيّ، ولكن الأمر الذي يدهشني هو كيف يكون

جورج لي على طرف النقيض من أبيه!

- أجل، ولكن يوجد اتجاهان مختلفان في العائلة، فألفريد وجورج وديفيد يتشابهون من حيث انتمائهم إلى جانب الأمّ، وقد لاحظت ذلك لأنني كنت أنظر إلى بعض صوَر الأسرة هذا الصباح.

ثم أكمل المفتش حديثه قائلاً: لقد كان سيميون لي حادّ الطباع لديه سمعة سيّئة من جانب النساء، وكان ذلك في الماضي البعيد طبعاً، ثم أصبح مُقعَداً منذ بضع سنوات، وكانت تصرّفاته في الماضي رغم ضعته تتّسم بالكرم، ولكنه كان يعامل زوجته معاملة سيئة حتى ماتت محطمة الفؤاد، كما كان ميّالاً بطبعه إلى الأخذ بالثأر لا يترك إنساناً أساء إليه حتى ينتقم منه ولو انتظر سنوات طويلة.

قال بوارو ببطء: أتعني أنه لقي مصرعه بسبب ذلك؟

- لقد أورث سيميون لي واحداً من أبنائه ذلك الطبع.

وتوقّف الحديث عندما ظهرت هيلدا.

قالت هيلدا: كنتُ أبحث عنك يا سيد بوارو.

فانسحب المفتش سادغن، وسألها بوارو: هل كنتِ تريدين مقابلتي؟

- نعم، أعتقد أنك تستطيع مساعدتي؛ فأنت شخص ذكي، وقد لاحظت ذلك أمس. أريد منك أن تفهم زوجي؛ فهو منذ زواجنا يُعتبر مريضاً نفسياً. الجراح العضوية تندمل بسرعة، ولكن زوجي تعرّض لأزمة نفسية في شبابه المبكّر، فقد كان يحبّ أمّه حبّاً أكثر من نفسه ثم رآها وهي تموت، وهو يعتقد أن أباه مسؤول عن موتها. لقد كانت صدمة لم يُفِق منها حتى الآن، وعندما تسلّم دعوة أبيه بالمجيء نصحته بالقبول ليعقد مصالحة مع أبيه، ولكنني كنتُ مخطئة لأن سيميون لي كان يستمتع بإثارة جراح الماضي.

- هل تريدين أن تقولي إن زوجك هو القاتل؟

- أقول إنه كان من السهل عليه أن يقتله ولكنه لم يفعل؛ فعندما لقي سيميون مصرعه كان ديفيد يعزف على البيانو اللّحن الجنائزي معبّراً عن الرغبة في القتل، وهكذا مرّت الألحان العاطفية بين أصابعه من خلال الأمواج الصوتية. هذه هي الحقيقة.

وصمت بوارو برهة ثم قال: وما حكمكِ على المأساة التي وقعت في الماضي يا سيدة هيلدا؟

- كان سيميون لي مسؤولاً عن سوء معاملته لامرأته، ولكن ينبغي ألاّ نحكم على الظواهر لأنني أعتقد أنه كان ينفر من الدموع بحكم طباعه.

- لقد قال زوجكِ بالأمس إن والدته لم تكن تشكو

قطّ، فهل هذا صحيح؟

- ليس صحيحاً؛ فقد كانت تشكو دائماً لديفيد، ومن ثَم تحمّل قَدْراً كبيراً من التعاسة، وكان لا يزال في سنّ مبكرة لا يستطيع أن يحتمل كل ذلك العذاب.

وفي تلك اللحظة ظهر ديفيد لي خارجاً من القصر مقبلاً نحوهما ثم قال لهيلدا: ما أروع هذا اليوم! إنه أشبه بأيام الربيع.

ثم ازداد اقتراباً وكانت خصلة شعره تتدلى على جبينه، وكان يبدو أنه أبعد ما يكون عن الهموم، ثم طلب من هيلدا أن تصحبه إلى البحيرة، وراقبهما بوارو وهما يبتعدان. ولم تكد هيلدا تبتعد كثيراً حتى نظرت إلى الوراء وفي عينيها نظرات تنمّ عن الخوف أكثر مما تعبّر عن القلق، فهمس بوارو لنفسه قائلاً: كما كنتُ أقول دائماً، أنا الأب الذي يعترف له الناس، وحيث إن الاعتراف يصدر عن النّساء أكثر مما يصدر عن الرجال فأنا أتساءل عمّا إذا كانت امرأة أخرى سوف تأتي لتعترف لي في القريب أم لا!

وبينما هو يتجه نحو شرفة القصر كانت ليديا لي متّجهة إليه، ثم قالت ليديا: صباح الخير يا سيد بوارو. أنا سعيدة لأنني وجدتك وحدك. لقد كان زوجي يتحدّث عنك، وأنا أعلم أنه توّاق للحديث معك.

- هل أذهب للقائه الآن؟

- لا ليس الآن؛ فهو لم ينَم الليلة الماضية فأعطيتُه شراباً منوّماً ولا يزال نائماً. أنت تعرف يا سيد بوارو أن وقع الحادث كان أشدّ عليه من الآخرين.

- أنا مدرك هذا تماماً.

- هل لديكَ أو لدى المفتش سادغن فكرة عن القاتل؟

- لدينا بعض الأفكار عمّن لم يرتكب الجريمة.

- وما رأيك في هوربري؟ هل كان في دار العرض حقاً؟

- نعم، فقد تحقّقنا من صدق روايته.

- معنى هذا أن القاتل واحد من أفراد الأسرة.

- أجل.

- أنا لا أصدّق هذا؛ فهذا مستحيل!

- بل أنتِ تعلمين جيداً أن هذه هي الحقيقة.

- ولكن هذه فكرة غريبة يا سيد بوارو!

- وكذلك كان السيد سيميون لي إنساناً غريباً.

ثم انحنى بوارو على الأحواض وهو يقول: هذا عمل فني رائع!

- هذه إحدى هواياتي. هل يعجبك الحوض الذي يمثّل القطب الشمالي بما فيه من ثلج وحيوانات البنغوين؟

- رائع! وما هذا الحوض؟

- هذا هو البحر الميّت، أو هكذا سوف يكون لأنه لم ينتهِ بعد.

وأخذ بوارو يستعرض الحوض ببصره، ثم ذهبَت ليديا محتجّة بأن ألفريد ربما يكون قد استيقظ، فعاد بوارو يتأمّل حوض البحر الميّت باهتمام، ثم انحنى فالتقط بعض الحصى وهو يتحسّسها بأصابعه، وفجأة تغيّر وجهه وهو يقول بدهشة: يا لها من مفاجأة! والآن ما الذي يعنيه هذا على وجه التحديد؟

* * *

الفصل الخامس
٢٦ كانون الأول (ديسمبر)

-١-

قال المفتش سادغن بدهشة بالغة: هل وجدتَها في حديقة السيدة ألفريد؟ ولكن هذا غير معقول!

قال بوارو: أتعني أنها لا يمكن أن تكون القاتلة؟

- بل أعني سرقة الماس.

- أيّ إنسان يستطيع أن يخفيه في الحديقة.

فقال الكولونيل جونسون: لا أظن أنها هي التي سرقَت الماس.

قال بوارو على الفور: هناك احتمال أن تكون هي الفاعلة لتوحي بالدافع لارتكاب هذه الجريمة.

وهزّ المفتش سادغن رأسه بإصرار فسأله بوارو بهدوء: إذا لم يكن الأمر كذلك فما رأيك؟

فقال المفتش بحذر: السيدة لي سيدة لطيفة وأنا أستبعد اشتراكها في شيء كهذا، ولكن مَن يدري؟!

قال رئيس الشّرطة لمساعده: دعنا من موضوع الماس الآن. هل حصلتَ على معلومات جديدة؟

فقال المساعد: نعم، وهي عن هوربري. لقد علمتُ سبب فزعه عندما سمع كلمة الشّرطة.

- أهو متورّط في السرقة؟

- لا يا سيدي، بل هو ابتزاز الأموال عن طريق التهديد.

فقال الكولونيل: هل لديك أيّ معلومات أخرى؟

فمال المفتش بمقعده ثم قال بتردّد: السيدة جورج لي يا سيدي، كانت تعيش قبل زواجها مع ضابط بحري على أنه أبوها ولكنها لم تكن ابنته، وربما يكون العجوز قد اكتشف ذلك وكان على وشك أن يكشف أمرها.

فقال الكولونيل مفكّراً: هذا يعطيها دافعاً آخَر لارتكاب الجريمة بالإضافة إلى المال، أمّا بالنسبة للمكالمة الهاتفية فقد علمنا أنها كاذبة.

فقال سادغن: لماذا لا نجمعها مع زوجها لننتهي من أمر المكالمة الهاتفية؟

فرحّب جونسون بالفكرة وأرسل في استدعاء

الزوجين. ودخل جورج لي ترافقه زوجته فأخبره الكولونيل بأنه يريد أن يوضّح له بعض النقاط، ثم أومأ للمفتش الذي قال: بالنسبة للمكالمة الهاتفية التي أجريتها مع دائرتك الانتخابية ليلة الحادث فقد تحقّقنا من ذلك.

- أعتقد أن المكالمة بدأت في الساعة الثامنة وتسع وخمسين دقيقة تماماً.

فقال المفتش: لقد تأكّد لنا أن المكالمة انتهت الساعة التاسعة وأربع دقائق، وقد وقعت الجريمة نحو التاسعة وخمس عشرة دقيقة، فأين كنتَ خلال تلك الفترة؟

فردّ جورج: أخبرتك أنني كنتُ أتحدّث في الهاتف.

- لا يا سيد لي.

- حسناً، كنتُ أحاول أن أُجري اتصالاً ثانياً عندما سمعتُ الأصوات في الطابق العلوي.

- هل ظللتَ تحاول الاتصال لمدّة عشر دقائق؟

فاحمرّ وجهه من شدّة الغضب وهو يجيب قائلاً: هل تكذّب شخصاً في مثل مركزي؟! هل أنا مطالَب بتقديم كشف حساب عن كل دقيقة من تحرّكاتي؟ هل يقرّ رئيس الشرطة هذا التعسف؟

فقال رئيس الشرطة بهدوء: يجب أن تجيب عن الأسئلة التي توجَّه إليك؛ فنحن أمام جريمة قتل غامضة.

ثم وجّه سؤالاً إلى السيدة لي: هل كنتِ في هذه الحجرة عندما سمعتِ الجلبة القويّة في الطابق العلوي؟

فتلعثمت السيدة لي وقالت: أنا؟ نعم، نعم.

ثم التفت المفتش نحو السيدة لي قائلاً: سبق أن قلتِ إنك كنت تتحدّثين في الهاتف عندما سمعتِ الصّرخة، وإنكِ كنت وحدك في الحجرة، أليس كذلك؟

فاضطربت ماغدولين وأخذت تنقل نظراتها بين سادغن وزوجها، ثم نظرت إلى الكولونيل مستنجدة وقالت: في الواقع أنا لا أدري... لا أذكر ما قلتُه؛ فقد كنت مضطربة تماماً!

قال سادغن: كل أقوالكِ مسجّلة لدينا.

فقالت متلعثمة: بلى، كنتُ أتحدّث في الهاتف ولكنني لست متأكّدة من الوقت.

ثم توقّفت عن الحديث فسألها زوجها بانفعال قائلاً: من أين كنتِ تتحدّثين؟!

فتدخل المفتش قائلاً: لم تكوني تتحدّثين في الهاتف.

أين كنتِ إذن يا سيدة لي؟ وماذا كنت تفعلين؟

فانفجرت ماغدولين باكية وهي تقول لزوجها: جورج، لا تدَعْهم يُفزِعوني! أنت تعلم أنني عندما أضطرب لا أعرف ماذا أقول! وقد كنتُ مضطربة أمس لأنهم عاملوني بوحشية!

ثم غادرت الغرفة باكية فقفز جورج واقفاً وهو يقول بغضب: ما معنى هذا؟ سوف أقدّم استجواباً في البرلمان عن الأساليب العنيفة التي تتّخذها الشّرطة.

قال ذلك ثم غادر الغرفة وهو يجذب الباب وراءه بعنف.

-٢-

مال المفتش برأسه إلى الوراء وهو يقهقه عالياً ثم قال: لقد استطعنا أن نوقع بينهما، وما علينا إلا أن ننتظر لنرى، فسوف تعود بعد قليل عندما تفكّر فيما ستقوله لنا. ما رأيك يا سيد بوارو؟

كان بوارو يفكّر بعمق في حين استطرد سادغن قائلاً: الواضح من أقوال الجميع أنه لا يتذكّر أحد منهم مَن الذي صعد أولاً خلال الهرج الذي حدث، فقد كان الجميع يجرون ولا أحد يتذكّر ما حدث على وجه التحديد.

قال بوارو بهدوء: هل تعتقد أن ترتيب الوصول إلى غرفة القتيل له كل هذه الأهمية؟

فقال المفتش: هذا هو عنصر الوقت، وقد كان الوقت ضيّقاً للغاية.

- أتّفق معك على أن عنصر الوقت له كل الأهمية في هذه القضية.

- ولكن الذي يزيد الأمر تعقيداً هو أنه يوجد جهتان للدرَج، الدرَج الرئيسي في الصالة والدرَج الآخَر في الطّرف الثاني من القصر. وقد جاء ستيفن فار من هذا الأخير وأقبلَت الآنسة أسترافادوس من الناحية الأخرى حيث تقع غرفتها في النهاية، ويقول الآخرون إنهم جاؤوا عن طريق هذا الدرج.

فقال بوارو: هذا أمر يبعث على الحيرة فعلاً!

وفي تلك اللحظة اندفعَت ماغدولين إلى داخل الغرفة وأنفاسها تتلاحق وقالت بهدوء: يعتقد زوجي أنني نائمة الآن، ولكنني تسلّلتُ من غرفتي بخفّة لأخبرك بالحقيقة يا كولونيل جونسون، وأرجو أن تُبقِي الأمر سرّاً. هل أطمح في ذلك، أعني عدم تسرّب الخبر علانية؟

فقال الكولونيل بحذر: أتعنين أن السرّ الذي سوف تُفشينه لنا ليس له دخل بهذه القضية؟

- نعم، هو أمر يتعلّق بحياتي الشخصية.

فقال الكولونيل: اذكري الحقيقة واتركي لنا الحكم على الأمر.

فقالت السيدة لي إنها كانت على وشك الاتصال برجل صديق لها ولم تكن تريد أن يعلم جورج بالأمر، فذهبَت بعد العشاء لتُجري الاتصال الهاتفي ظناً منها أن زوجها في غرفة المائدة، وعندما رأته يتحدّث في الهاتف اختبأت خلف الدرَج حيث توضع المعاطف في ذلك المكان المظلم وظلّت حتى سمعت الأصوات وصرخة السيد لي، وعندئذٍ أسرعَت تصعد الدرَج، فقال جونسون: معنى هذا أن زوجكِ لم يغادر هذه الغرفة حتى لحظة وقوع الجريمة، أليس كَذلك؟

فقالت بتؤدة: بلى، هو لم يغادرها. والآن هل تعِدُني بكتمان السرّ عن زوجي؟

ثم خرجت من الغرفة على أثر ذلك فتمتم الكولونيل: ربما كان الأمر كما تقول وربما...

فأكمل المفتش قائلاً: وربما كان الأمر مختلفاً، وهذا لا نعرفه الآن.

-٣-

كانت ليديا واقفة وراء النافذة يخفي الستار نصف جسدها عندما سمعَت صوتاً خلفها، فاستدارت مذعورة لتجد هيركيول بوارو فقالت له: ظننتكَ هوربري.

فقال بوارو: معك حق؛ فذلك الشخص يسير بخفة القِطّ أو اللّص.

- أنا لم أشعر بالارتياح نحو ذلك الشخص قطّ ويسعدني أن أتخلّص منه. هل اكتشفتَ شيئاً عنه؟

- هو شخص يجمع الأسرار ويستخدمها لصالحه.

- هل تعتقد أنه يعرف شيئاً عن الجريمة؟

- ربما يكون قد سمع شيئاً ويحتفظ به لنفسه.

فسألته عن سبب مجيئه فأخبرها أن زوجها طلب منه التحقيق في الجريمة والكشف عن القاتل كما طلب منه البقاء في القصر حتى ينتهي من مهمّته وأنه لا يستطيع أن يقبل تلك الدعوة ما لم توافق على ذلك ربّة المنزل، وعندئذٍ قالت إنها تؤيّد رغبة زوجها، فسألها بوارو: هل ترغبين حقاً في أن أبقى هنا؟ ولكي نكون صُرَحاء فأنا أوجّه إليكِ هذا السؤال، هل تريدين معرفة الحقيقة أم لا؟

– أريد الحقيقة بالتأكيد وأفهم وجهة نظرك، وهي أنه إذا لم توجَّه التهمة إلى هوربري فمعنى هذا أن واحداً من أفراد العائلة هو القاتل، ولكن تقديم ذلك الشّخص للعدالة يعني الفضيحة لنا جميعاً وأنا لا أحبّ أن يحدث شيء كهذا.

– وبهذا يمضي القاتل دون عقاب، أليس كذلك؟

– لقد حدث مرّات عديدة أن أفلت القاتل ولا ضرر في أن يزيد العدد واحداً.

فأخبرها بوارو أن ذلك يؤدّي إلى بقاء الاتهام معلّقاً فوق رؤوس الجميع، ثم أضاف قائلاً: هذا إذا لم تكوني تعرفين القاتل بالفعل.

فقالت ليديا بانفعال: ليس من حقّك أن تقول شيئاً كهذا؛ فمن الممكن ألاّ يكون القاتل عضواً من أفراد العائلة بل أن يكون إنساناً غريباً.

– قد يكون الأمر كذلك، أعني أن يكون القاتل فرداً من العائلة وغريباً في نفس الوقت. هذه فكرة طرأت على ذهن هيركيول بوارو. والآن ماذا أقول للسيد لي؟

– يجب أن توافق بالتأكيد.

-٤-

كانت بيلار تقف في وسط غرفة الموسيقى مع ستيفن فار وهي تبدو كالحيوان المذعور، ثم قالت إنها تتمنى لو أنها غادرت المكان؛ فليس مما يبعث على الاحترام المثول بين يدي الشّرطة للتحقيق في الجريمة، فسألها ستيفن عمّا إذا كانت تعني نفسها بهذه الملاحظة فقالت: لا، بل أعني ألفريد وليديا وجورج وديفيد وهيلدا وكذلك ماغدولين.

- ولماذا تستثنين هاري؟

فضحكَت بيلار بمرح وقالت: الأمر يختلف بالنسبة لهاري لأنني أعتقد أنه اعتاد التعامل مع رجال الشرطة. ألا تتمنّى أنت أيضاً مغادرة هذا المكان؟

- بلى، أتمنى ذلك، ولكن الشّرطي الوسيم لن يسمح لي، ثم هناك المحقّق المجنون الذي يجوس خلال القصر.

فقالت بيلار متسائلة: ألم يكن جدّي بالغ الثراء؟ فلِمَن تؤول ثروته؟

- هذا يتوقّف على الوصية، ولكنكِ واحدة من أفراد الأسرة وسيسهرون على رعايتك.

ثم طلبت بيلار من السيد فار الاستماع إلى بعض الأسطوانات فقال إن ظروف الحِداد لا تسمح، ولكنها

عرضت عليه تغطية الغرامافون بقطعة من القماش لكتم الصوت، وبينما هما يغادران الحجرة للذهاب إلى قاعة الرقص في الطرف الآخَر من القصر لمحا بوارو في الممرّ ينزع إحدى اللّوحات من الحائط، وقال لهما: لقد وصلتما في وقت غير مناسب.

فسألته بيلار عمّا يفعله فقال إنه يدرس شيئاً هاماً للغاية، وهو وجه سيميون لي عندما كان شابّاً، فارتعدت بيلار وهي تتأمّل الصورة وقالت: ما أشبهه بهاري! لا شك أن هاري كان يبدو كذلك منذ عشرة أعوام.

فقال بوارو وهو يتأمّل عينَي بيلار: عوامل الوراثة شيء هام يا آنسة. تُرى كيف كانت ملامح أمّك؟

فخلعَت بيلار السّلسلة الذهبية التي تضعها حول عنقها وفتحت القلب قائلة: هذه صورة أمّي.

فتأمّل بوارو صورة جنيفر ثم صورة الشاب الوسيم في الجانب الآخر في القلب بشعره الأسود وعينيه الزرقاوين، ثم قال: هل هذا أبوك؟

- نعم، لقد كان أبي وسيماً للغاية، أليس كذلك؟

- بلى، إنه وسيم حقاً، ولكن القليل من الإسبان من تكون عيونهم زرقاء!

- إنهم كذلك أحياناً في الجنوب، فضلاً عن أن

جدّتي لأبي كانت أيرلندية.

فقال بوارو باسماً: أنت بهذا تجمعين بين الدماء الإسبانية والأيرلندية والإنكليزية، وأنت بهذا الميراث تصبحين عدوّاً خطيراً.

فضحك ستيفن وهو يقول: هل تذكرين يا بيلار ما قلته لي في القطار عن أن طريقة تعاملك مع أعدائك هي قطَع الرقبة؟

وتوقّف السيد فار بعد أن أدرك خطورة الكلمات التي صدرت عنه، فغيّر بوارو دفّة الحديث بسرعة طالباً من بيلار أن تحضر جواز سفرها دفعاً لتعليمات الشّرطة لأنها لا تزال في نظر القانون أجنبية، فارتفع حاجبا بيلار واستأذنت لتحضره من غرفتها، ثم تبعها بوارو وستيفن وهي تصعد الدرَج ولكنها دخلت الحجرة بمفردها في حين انتظر بوارو وستيفن في الخارج فقال بوارو بهدوء: الإنكليز مولَعون بالهواء النقيّ بشكل غريب، ولا شك أن الآنسة أسترافادوس قد ورثت هذه الخاصية؛ فبرغم برودة الجوّ اليوم إلا أنها فتحت النافذة.

وفي تلك اللحظة سمعا تعبيراً بالإسبانية عن الضيق، ثم خرجت بيلار قائلة إنها كانت تفتح حقيبتها بإهمال أمام النافذة فسقط جواز السفر في الحديقة وإنها ذاهبة لإحضاره، فقال السيد فار إنه سيحضره لها ولكنها تجاوزته بسرعة قائلة: كان سقوطه بسبب إهمالي.

انتظرني مع السيد بوارو في غرفة الاستقبال.

فقال بوارو وهو يمسك ذراع ستيفن ليمنعه من اللحاق بها: تعالَ معي إلى الغرفة التي وقعَت فيها الجريمة لأنني أريد أن أسألك عن شيء.

وبينما كانا يجتازان الممرّ الذي تقع فيه الغرفة توقّف ستيفن أمام فجوة في الجدار معرباً عن دهشته لأنه يذكر أنه رأى في الليلة السابقة ثلاثة تماثيل من المرمر في حين لا يوجد الآن غير اثنين. وقد عثرا على المفتش سادغن داخل الغرفة يبحث في الخزانة بعدسة مكبّرة، ثم قال إنها فُتحَت بواسطة شخص يعرف شفرة الأرقام التي تفتح بابها لأنه لا أثر لخدوش عليها، فاقترب منه بوارو وهمس بشيء في أذنه، وأخذ بوارو يتأمّل ستيفن الذي كان يحملق إلى المقعد الذي كان يجلس عليه سيميون لي ثم قال له: أعتقد أنكَ كنت أوّل من وصل إلى مسرح الجريمة، أليس كذلك؟

- أنا؟ لا أذكر تماماً، ولكنني أعتقد أن إحدى السيدات كانت أسبق مني.

- أيّ واحدة منهنّ؟

- السيدة جورج أو السيدة ديفيد، أذكر أنهما وصلتا بسرعة.

- ولكنك قلت السيدة ديفيد، أليس كذلك؟

- أنا قلت ذلك؟! لا أذكر، وربما يكون أحدهم قد خرج ولكن الصّرخة ربما جاءت من الطابق الأرضي.

ثم أومأ المفتش برأسه وغادر الغرفة فقال بوارو: هل سمعتَ صوتاً كهذا؟

ثم مال برأسه إلى الخلف وأطلق صرخة عالية، ففوجئ السيد فار وتراجع إلى الوراء مذعوراً وهو يسأل بوارو غاضباً: لماذا تريد أن تُفزِع مَن في القصر؟ لا، لم أسمع شيئاً كهذا. سوف يعتقد الجميع أن جريمة أخرى قد وقعت.

ثم أسرع بوارو إلى الخارج فلمح ليديا وألفريد يندفعان نحو الدرَج في حين كان جورج خارجاً من غرفة المكتب ليلحق بهما، ثم أقبلت بيلار مسرعة وهي تمسك جواز السفر، فقال بوارو معتذراً: لا ترتاعوا؛ فقد كانت مجرّد تجربة صغيرة.

ثم خرج بوارو تاركاً ستيفن يشرح لهم الأمر وذهب إلى الجانب الآخر من القصر حيث كان المفتش يخرج من غرفة بيلار ليلتقي ببوارو فسأله الأخير: ما النتيجة؟

فهزّ المفتش رأسه قائلاً: لم أسمع شيئاً.

قال ألفريد في حين كانت ليديا تقف بجواره: إذن فأنت توافق يا سيد بوارو؟ لا يمكن أن تتخيّل ماذا يعني ذلك بالنسبة لي! يجب أن يتمّ القبض على قاتل أبي.

فردّ بوارو: يجب أن تُدرك أنه لا تراجع بعد ذلك.

- بالطبع تستطيع أن تبقى في القصر كما يحلو لك.

- أؤكّد لك أن إقامتي لن تطول.

فقال ألفريد بدهشة: هل معنى هذا أنك تعرف القاتل؟

- تقريباً، ولكنني أتقدّم لك بطلبين، أوّلهما أنني أريد صورة السيد لي في شبابه الموضوعة في غرفة النوم، والثاني أريد معرفة الظروف التي أحاطت بموت جوان زوج شقيقتك.

فقالت ليديا بحدّة: هل هذا ضروري؟!

فقال ألفريد: لقد قام شجار بينه وبين رجل من أجل سيدة فقتله جوان، طعنه فصدر عليه حُكْم بالسجن مدى الحياة، ثم مات في السجن.

فسأله بوارو: هل تعرف ابنته هذه الحقيقة؟

أجاب ألفريد: لا أظن ذلك.

فقالت ليديا بدهشة: هل تشتبه في أن بيلار...؟

فقال بوارو: والآن أريد أن أعرف بعض المعلومات عن أخيك هاري. لقد سمعتُ أنه أساء إلى العائلة، كيف؟

فاحمرّ وجه ألفريد وهو يقول بانفعال: لقد سرق مبلغاً من المال بعدما زوّر إمضاء أبي على أحد الشيكات، ولم يتّخذ أبي الإجراءات القانونية بالطبع. لقد كان هاري معوجّ السلوك دائماً، وكان يطلب المال حيثما كان من العالَم، أضف إلى ذلك أنه دخل السّجن مرّات عديدة هنا وفي الخارج.

فقال بوارو: أرى أن الحبّ كان مفقوداً بينكما.

ردّ ألفريد: لقد كان يستغلّ أبي بدناءة.

فقالت ليديا: لو أننا عثرنا على الماس لظهر الحلّ.

قال بوارو بهدوء: لقد تم العثور عليه في حوض البحر الميّت في حديقتكِ يا سيدة ألفريد.

* * *

الفصل السادس
٢٧ كانون الأول (ديسمبر)

-١-

تقرّر تأجيل التحقيق في القضية، وكان ألفريد لي مسروراً لأن الجلسة مرّت بسلام في حين كان جورج مُحنقاً، ثم قال للسيد شارلتون المحامي: على الكولونيل جونسون أن يضع القضية بين أيدي اسكتلنديارد لأن الشرطة المحلّية لا تفعل شيئاً.

وعرضت ليديا على المحامي كأساً من عصير البرتقال ولكنه اعتذر بأدب، ثم بدأ يتلو الوصية على أفراد الأسرة قائلاً: إنها وصية في غاية البساطة، وهي أن نصف الثروة من نصيب السيد ألفريد على أن يقسَّم النصف الثاني بين الأبناء.

فقال هاري ضاحكاً: وكما هي العادة يفوز ألفريد بنصيب الأسد!

فقال ألفريد محنقاً: يجب أن تعتبر نفسك محظوظاً لأن أبي ترك لك شيئاً.

فسأله هاري بحدّة: وماذا بشأن بيلار؟

وردّ المحامي بأن جنيفر كانت تستحقّ نصيبها لو أنها عاشت، لكن نظراً لموتها فإن نصيبها يوزَّع بين إخوتها، فقالت بيلار باستياء: هل معنى هذا أنني لن أحصل على شيء؟!

فقالت ليديا برفق: أنت واحدة من العائلة ولن نتخلّى عنك يا عزيزتي.

وقال هاري مغضباً: يجب أن تحصل على نصيبها من التّركة.

وعندما لمح المحامي بوادر الشقاق تدبّ بين أفراد الأسرة استأذن في الانصراف، وانضمّت ليديا إلى هاري في الرأي فعرضت أن يشترك كل الورثة في التنازل عن نصيب جنيفر لابنتها بيلار، ولكن جورج وماغدولين أصرّا على عدم التنازل عن بنس واحد، ثم طلبت ليديا من ألفريد أن يُبدي رأيه في الموضوع باعتباره أكبر أفراد الأسرة فقال ألفريد: أعتقد أن ليديا على حقّ. يجب أن تحصل بيلار على النصيب المستحَقّ لأمّها وأن يتنازل كل منا عن بعض ميراثه لنقدّم لها نصيبها من التركة.

وعندما حاول ألفريد أخذ الأصوات على هذا الرأي اعترض جورج بشدّة، ثم قالت ليديا: أين ذهب السيد فار والسيد بوارو؟

فأخبرها ألفريد أنهما قد ذهبا إلى السوق لشراء بعض الأشياء التي يحتاج إليها بوارو، ثم خرج الجميع وتبعت ليديا هيلدا إلى غرفة الاستقبال فوجدتا ماغدولين وبين يديها علبة تبغ صغيرة فقفزت ماغدولين بارتياع قائلة: يبدو أن هذه علبة تبغ السيد بوارو؛ فقد رأيته يضعها هنا منذ لحظات.

ثم نقلت نظراتها بين ليديا وهيلدا ضاحكة ثم قالت: سوف أفتحها لأرى ما فيها.

وعندما فتحت ماغدولين العلبة صاحت بدهشة قائلة: شارب مستعار؟! أليس شارب السيد بوارو رائعاً؟ لا شك أن ذلك الشخص مجنون!

-٢-

عندما انسحبَت بيلار من الاجتماع العائلي كان ستيفن فار في انتظارها، وعلم منها أنها خرجت صفر اليدين فقال لها: لا أظن أن أفراد الأسرة سيتخلّون عنك.

- لن أقبل حسنة منهم.

- ما رأيكِ في أن تذهبي معي إلى جنوب إفريقيا؟ فهناك الشمس وفرص كثيرة للعمل.

ثم قادها ستيفن إلى غرفة صغيرة كانت تتكدّس فيها الأشياء المُعَدّة للاحتفال بعيد الميلاد من أطعمة ومشروبات ومعدّات الزينة والبالونات الملوّنة، ثم قال ستيفن لها ضاحكاً: ما رأيكِ في أن نلهو قليلاً لننسى آثار المأساة التي تحيط بنا؟ اختاري بالونة لنملأها بالهواء ثم نفجّرها.

رحّبَت بيلار بالفكرة واختارت بالونة حمراء وأخذت تنفخ فيها بمرح، وعندما ملأ كل منهما البالون الذي اختاره بالهواء ربطه بالخيط، ثم أخذا يلعبان كالأطفال وهما يدفعان البالون إلى أعلى فقالت بيلار: فلنذهب إلى الصّالة فالمكان واسع هناك.

ثم أخذا يقذفان البالونات وهما يضحكان، وعندما جاء بوارو قال لهما بدهشة: أنتما تلعبان كالأطفال... هذا رائع!

فقالت بيلار ضاحكة: بالوني الأحمر، وهو أكبر من بالونه. انظر، سوف أجعله يطير عالياً في السماء.

ثم جرت بيلار نحو باب الحديقة يتبعها ستيفن وبوارو يسير خلفهما، وقذفَت بيلار البالون فحمله الهواء إلى أعلى في حين كانت بيلار تقول: أنا أتمنّى أن أملك قَدْراً كبيراً من المال.

وقال ستيفن: عندما تتمنّين ينبغي أن تحتفظي

بأمنيتك لنفسك حتى تتحقق الأمنية.

ثم أطلق ستيفن بالونه فانحرف به الهواء نحو شجرة فتعلّق بأحد أغصانها ثم انفجر محدِثاً دويّاً، فانطلقت بيلار نحو البالون المنفجر فعثرت علَى قطعة من المطاط على الأرض، ثم أمسكتها بين أصابعها قائلة: هذا ما عثرتُ عليه في غرفة جدّي، ولكن بالون جدّي كان قرنفليّ اللون.

فنظر بوارو إليها بدهشة ثم قال: القصر مليء بالنوافذ يا آنسة وله عيون وآذان، ومن المؤسف أن الإنكليز مولَعون بالنوافذ المفتوحة!

ثم خرجت ليديا إلى الشُّرفة قائلة لبيلار: لقد تمّت تسوية القضية على الوجه الذي يريحكِ يا عزيزتي، وسوف يشرح لك ألفريد الأمر بعد العشاء.

ثم دخل الجميع في صمت في حين كان بوارو يسير في الخلف وهو يفكر باهتمام.

-٣-

بعد العشاء طلب ألفريد لي من بيلار أن تتبعه إلى غرفة المكتب وذهب الآخرون إلى غرفة الاستقبال وبقي بوارو وحده في الصالة، فاقترب منه تريسليان الذي أخبره بوقوع حادث غريب، وهو أنه كانت تزيّن مدخل

القصر كُرَتا مدفع مصنوعتان من الحجارة، ولكنه لاحظ اختفاء إحداهما في الصباح. وذهب بوارو لمعاينة المكان حيث وجد القاعدة خالية من القذيفة الحجرية وفحص القذيفة الأخرى فقال تريسليان: لا شك أن هذا القصر انقلب إلى دار للمجانين!

فقال بوارو بانفعال: الذي فعل ذلك ليس مجنوناً. أؤكّد لك يا تريسليان أن حياة أحد الأشخاص مهدَّدة بخطر جسيم.

ثم استدار بوارو ودخل مسرعاً فالتقى ببيلار التي كانت تغادر غرفة المكتب غاضبة فأخبرته أنها لا تقبل إحساناً من أحد. وكانت بيلار تهمّ بالانصراف عند سماع رنين جرس الباب، ونظر بوارو إلى ناحية الباب فلمح المفتش سادغن فقال بوارو لبيلار بسرعة: ابقَي مع الآخرين ولا تتجوّلي وحدك في القصر خاصة بعد حلول الليل؛ فربما لم تتعرّض حياتكِ من قبل لمثل ما يتهدّدك من الخطر هذه الليلة.

ثم استدار بوارو ليلتقي بسادغن، وانتظر الأخير حتى خرج تريسليان ثم أخرج برقية من جيبه طالباً من بوارو قراءتها قائلاً إنها واردة من شرطة جنوب إفريقيا، وكانت البرقية تقول: «لقد مات الابن الوحيد لأبينيزر فار منذ عامين». ثم قال: نحن نعرف كل شيء الآن. لقد كنتُ أسير في الطريق الخطأ.

- ٤ -

دخلَت بيلار غرفة المائدة مرفوعة الرأس فالتقت بليديا فقالت لها إنها ترفض ما عرضه عليها ألفريد، ثم أضافت أنها قرّرت مغادرة القصر في الحال لأنها لا تقبل إحساناً من أحد، ثم انهمرت الدموع بغزارة من عينَي بيلار وغادرت الغرفة مسرعة فلم يُخفِ جورج سروره، ثم دخل المفتش وهيركيول بوارو الغرفة وسأل الأوّل: أين السيد فار؟ أريد أن أتحدّث معه.

وقبل أن يجيب أحد صاح بوارو بحدّة: أين الآنسة أسترافادوس؟!

فقال جورج بسرور: ذهبَت لتجمع حاجاتها استعداداً للرحيل.

فقال بوارو لسادغن: تعالَ معي.

وبينما كان الرجلان يجتازان الصالة سمعا صرخة مدوّية فعبرا الصالة بسرعة واندفعا نحو الدرَج إلى الطرف البعيد حيث وجدا باب غرفة بيلار مفتوحاً وستيفن فار واقفاً أمام الباب، ثم أخبرهما بما حدث. لقد نجَت بيلار من الموت بأعجوبة حيث سقطت كرة ضخمة من الحجر كانت موضوعة فوق مدخل الباب على قيد سنتيمترات من قدميها، وقد أنقذها مسمار في الباب تعلّق بثوبها فأخّر وصولها إلى مكان سقوط الكرة.

دخل بوارو إلى الغرفة ليجد الفتاة تلهث من الخوف قائلة: مَن الذي يريد قتلي؟ أنا لم أفعل شيئاً!

فقال بوارو: أنتِ لم تفعلي شيئاً ولكنك تعرفين بعض المعلومات الهامّة. أَين كنتِ ساعة وقوع الجريمة؟

فقالت بيلار: لقد ذكرتُ ذلك من قبل.

فقال المفتش متوعّداً: لا تكرّري ما قلتِه سابقاً لأننا نعرف أنك لم تذكري الحقيقة؛ فليس في استطاعتك أن تسمعي الصرخة وأنت هنا، وقد أجريتُ أنا والسيد بوارو اختباراً بالأمس فتأكّدنا من عدم صدقك.

وقال بوارو: لقد كنتِ في مكان قريب من غرفة سيميون لي، كنت مختبئة في الفجوة التي تضمّ التمثالين ولهذا السبب ظنّ السيد فار أنه شاهد ثلاثة تماثيل، أليست هذه هي الحقيقة؟

فاعترفت بيلار أنها غادرت غرفة المائدة بعد العشاء وفكّرت في مقابلة جدّها، إلاّ أنها شاهدت في الممرّ شخصاً آخر أمام الباب فاختبأت في الفجوة متستّرة بالظلام، وعندما سمعت أصوات الجلبة في الداخل وانقلاب الأثاث تسمّرَت في مكانها من الرّعب حتى سمعت الصرخة الرهيبة وشاهدت الآخرين يندفعون إلى المكان فانضمّت إليهم، فقال المفتش بحدّة: لماذا لم تذكري ذلك في التحقيق الأول؟

فهزّت بيلار رأسها قائلة: لو أنني ذكرتُ ذلك لكنتُ أوّل من يوجَّه إليه الاتهام.

فسألها ستيفن فار عن الشخص الذي كان واقفاً أمام الباب، فتردّدت الفتاة برهة ثم قالت: لا أدري؛ فقد كان الضوء خافتاً، ولكنها كانت امرأة.

-٥-

دعا هيركيول الجميع إلى اجتماع قائلاً للمفتش إنه سيعرض عليهم وجهة نظره ويطلب منهم التعاون، وبهذا تتضح الحقيقة. ثم طلب منه أن يبدأ بموضوع ستيفن فار فقدّم المفتش لستيفن فار البرقية طالباً منه ذكر الحقيقة فقال ستيفن: أعترف أنني لستُ ابن أبينيزر فار، ولكنني كنتُ أعرف الأب وابنه. وبالمناسبة اسمي ستيفن غرانت، وقد وصلتُ إلى هذه البلاد لأوّل مرة في حياتي فوجدت الحياة فيها كئيبة إلى أن التقيت بهذه الفتاة في القطار فأُعجبتُ بها. وعندما قرأتُ الاسم والعنوان الذي تقصده تذكّرتُ قصّة سيميون لي شريك أبينيزر ورأيتُها فرصة سانحة لانتحال شخصية ستيفن فار كنوع من المغامرة الممتعة، وسارت الأمور على ما يُرام ورحّب بي العجوز ودعاني لقضاء عيد الميلاد مع الأسرة. وتستطيع أن تتحقّق من المعلومات التي ذكرتُها، فأنا مواطن محترم ولست قاتلاً أو لصّاً.

فسأله المفتش: لماذا لم تذكر هذه الحقيقة بمجرّد وقوع الجريمة؟

فردّ السيد فار باضطراب: لأنني لو فعلت لكنتُ مغفّلاً؛ فلو أنني ذكرتُ لكم أنني انتحلتُ شخصية رجل آخر لكنتُ أوّل من تتجه إليه الشكوك.

بعد ذلك التفت بوارو نحو بيلار قائلاً إنه يعتقد أن لديها ما تريد أن تقوله، فامتقع وجه بيلار وقالت بصوت متقطّع: أنتم تظنون أنني بيلار أسترافادوس ابنة أختكم، ولكن هذا غير صحيح. لقد لقيَت بيلار مصرعها في حادث سيارة في إسبانيا، وكنت قد عرفت منها قصّتها وأن جدّها في إنكلترا بالغ الثراء، فسألت نفسي: لماذا لا آخذ جواز سفرها وأُصبح غنية؟ لم يكن الشّبه بيننا كبيراً، ولهذا عندما طلب مني السيد بوارو جواز السفر أسقطتُه في الحديقة ثم مسحت الصّورة بالطين حتى لا تنكشف الحقيقة.

صاح جورج بانفعال: أيتها المحتالة!

فقال هاري مدافعاً: لقد رفضَت أن تأخذ المال.

وسألت بيلار ناظرة إلى بوارو: هل كنت تعرف هذه الحقيقة؟

فقال بوارو: لو أنك درستِ قوانين الوراثة لعرفتِ أنّ أبوين لهما عيون زرقاء لا ينجبان فتاة سوداء العينين.

ثم تدخّل المفتش سادغن في الحديث قائلاً: أعتقد أن لديكِ قدراً أكبر من المعلومات لم تذكريه بعدُ، وأنا أعتقد أنك أنت التي سرقت الجواهر وعندما اكتشف السيد سيميون لي الأمر اتّجهَت شكوكه إلى اثنين هما هوربري وأنتِ، ثم اتّصل بي السيد سيميون وأبلغني بما حدث وطلب مني المجيء، ثم دعاكِ إلى زيارته بعد العشاء ليواجهك بالاتهام، وعندما وجدت أن الأمر اكتُشف دار بينكما صراع ثم أطلق العجوز صرخته فأسرعت إلى الخارج، ثم أدرت المفتاح من الخارج واختبأتِ في فجوة الجدار لحظة وصول الآخرين.

فصاحت بيلار بانفعال: هذا ليس صحيحاً؛ فأنا لم أسرق الماس ولم أقتل، وأقسم بالله على ذلك.

فصاح المفتش بحدّة: مَن القاتل إذن؟

قال جورج: لقد وضح الآن كل شيء... إنها هي القاتلة.

فقال بوارو: أنا أختلف معك في الرأي لأن الذي قتل سيميون لي من لحمه ودمه، وكانت لديه أسباب وجيهة لارتكاب الجريمة، وهناك مبرّرات لتوجيه الاتهام لأيّ واحد من الحاضرين هنا. ولنبدأ بك يا سيد جورج، فأنت لم تكن تحبّ أباك وكنت تسعى وراء المال، وقد هدّدك أبوك يوم مصرعه بتخفيض الإعانة، وقلت إنك ذهبتَ بعد العشاء لتُجري اتصالاً هاتفياً وهو ما حدث،

إلاّ أن المكالمة لم تستغرق أكثر من خمس دقائق، وكان باستطاعتك خلالها أن تتسلّل إلى حجرة نوم أبيك وتقتله ثم تغادر الحجرة وتدير المفتاح من الخارج حتى يبدو الأمر كأنه سرقة، ولكنك نسيت خلال فزعك أن تفتح النافذة على مصراعيها لتؤكّد نظريتك.

وحاول جورج أن يتكلّم ولكن الكلمات خانته، ثم استدار بوارو نحو ماغدولين قائلاً: الدافع للقتل موجود لديكِ أيضاً وليس لديكِ شاهد.

ثم نظر إلى ديفيد وقال: وهناك السيد ديفيد؛ فقد سمعنا مرّات عديدة أنه ميّال للانتقام وأنه لم يستطع أن يغفر لأبيه سوء معاملته لأمّه. وقد قال إنه كان يعزف اللحن الجنائزيّ وقت ارتكاب الجريمة، ولكن أيّ إنسان كان يستطيع أن يعزف على البيانو، شخص يعرف نوايا ديفيد ويؤيّده.

فقالت هيلدا: هذا اتّهام شائن!

فالتفت بوارو نحوها قائلاً: لديّ اقتراح آخَر، وهو أنك أنتِ التي ارتكبت الجريمة. لقد صعدتِ الدرج لتنفيذ الحكم في الشخص الذي تعتبرين إساءته غير قابلة للغفران.

فقالت هيلدا باستياء: أنا لم أقتل!

فقال المفتش بخشونة: السيد بوارو على حقّ؛ فكلّ

فرد منكم لديه الدافع للقتل، فيما عدا السيد ألفريد والسيدة ألفريد والسيد هاري.

فقال بوارو برقّة: أنا لا أستثني حتى هؤلاء الثلاثة.

فقالت ليديا: وما وجه الاتهام لي يا سيد بوارو؟

فانحنى لها بوارو بأدب وهو يقول: سوف أتجاوز عن الدافع لأنه واضح، وأقول إن تريسليان تخيّل أنه رآكِ قبل ارتكاب الجريمة تنظرين من النافذة، والواقع أنه رأى الوشاح الذي تضعينه فوق رأسك.

فصاح ألفريد باستياء: كيف تجرؤ على...؟

فتدخّل هاري قائلاً: دعه يستمرّ يا ألفريد لأن الدور التالي علينا. كيف تفسّر قيام ألفريد بقتل أبيه في حين أنني كنت معه في غرفة المائدة؟

فنظر بوارو إليه باسماً وقال: تفسير ذلك غاية في البساطة. لقد أوهمتُما الجميع بوجود خلاف حادّ بينكما؛ فقد كنتما تتشاجران بصفة دائمة، وقال كل منكما في التحقيق إنه كان مع الآخر، والحقيقة أن أحدكما ارتكب الجريمة في حين كان الآخر في الغرفة يرفع صوته ليسمعه الآخرون من الخارج وكأنه يتشاجر مع أخيه.

فقفز ألفريد من مقعده غاضباً وهو يقول بحدّة: أيها الشيطان، أيها الحيوان الدنيء!

والتفت المفتش نحو بوارو قائلاً: هل تعني ذلك حقاً؟

فقال بوارو بهدوء: كنتُ أعرض عليكم الاحتمالات، وهذا ما كان يمكن أن يحدث. والآن دعونا نعود إلى ما سبق أن قلتُه عن شخصية القتيل.

-٦-

هدأت النفوس وساد الصمت وبدأ بوارو حديثه قائلاً: إن القتيل هو محور المأساة، لذا يجب أن ندخل إلى أعماق قلبه لنرى ما في داخله لأن الشخص لا يعيش ويموت وحده بل الشخص هو ما يملكه وما يتركه لمن يأتون بعده. ما الذي أورثه سيميون لأولاده وبناته؟ الكبرياء والصبر، الصبر سنين طويلة للانتقام ممن أساء إليه، ونرى أن هذا الجانب من أخلاقه قد ورثه ديفيد رغم أنه لا يشبه أباه من حيث المظهر، في حين أن هاري هو الشخص الوحيد الذي يشبه أباه من حيث المظهر. وعندما نضع الاعتبارات السابقة في تقديرنا نقتنع بأن الذي ارتكب الجريمة واحد وثيق الصلة بالقتيل. وقد درستُ العائلة من الناحية النفسية فاكتشفتُ أن الطابع الإجرامي يمكن أن ينحصر في شخصين هما ألفريد وزوجة ديفيد، واستبعدتُ أن يكون ديفيد هو القاتل لحساسيته وخوفه من الدم، واستبعدتُ جورج وزوجته

لأنهما لا يستطيعان المخاطرة، واستبعدتُ زوجة ألفريد لأنها غير قادرة على ارتكاب الجريمة، وتردّدتُ بالنسبة لهاري ولكنني اقتنعت أنه ضعيف لا يقوى على ارتكاب مثل هذه الجريمة، أمّا هيلدا فهي من الطّراز الذي يأخذ على عاتقه تنفيذ العدالة بنفسه.

وصمت برهة ثم استطرد قائلاً: بعد ذلك استعرضتُ الظروف التي أحاطت بارتكاب الجريمة في غرفة العجوز، وتذكرون أن بعض قطع الأثاث الثقيلة انقلبت في أثناء الصراع الذي دار بين القاتل والقتيل، ولم أرَ مبرّراً معقولاً لحدوث مثل ذلك الصراع إلاّ إذا كان القاتل امرأة أو رجلاً ضعيفاً، ولكن الفكرة تصبح غير مقنِعة إذا كانت الجلبة والأصوات تكشف عن ارتكاب الجَريمة وتدفع الآخرين إلى الإسراع نحو المكان مما يصعّب مهمّة القاتل في الإفلات لأنه يعتمد على عنصر الوقت، ولا شكّ أنه من مصلحة القاتل تنفيذ الجريمة وقطع عنق سيميون لي بكل هدوء. كما أن هناك نقطة غريبة أخرى وهي إدارة المفتاح من الخارج، فهي تنفي الانتحار ولا توحي بفرار القاتل من النوافذ فضلاً عن عامل الوقت الذي يحتاج إليه القاتل، وكذلك قطعة المطّاط والوتد الخشبي الصغير، وتلك الأشياء لا معنى لها أيضاً ولكنها كانت داخل الحجرة، وهكذا ترون أن الجريمة غير منطقية.

ونظر إلى المفتّش ثم استطرد قائلاً: وثمة صعوبة

أخرى، وهي أن القتيل أخبر المفتش سادغن بوقوع سرقة وطلب منه العودة بعد ساعة ونصف. لماذا؟ وإذا كان سيميون لي يشتبه في حفيدته أو شخص آخر فلماذا لا يطلب من المفتش الانتظار حتى يزيد ضغطه على السارق؟ فقلت لنفسي إن الأمر كلّه خطأ. لماذا؟ لأننا ننظر إليه من الزاوية الخاطئة، من الزاوية التي يوجّهنا إليها القاتل. نحن أمام ثلاثة أشياء لا معنى لها وهي: الصراع، وإدارة المفتاح، وقطعة المطاط. وقلتُ لنفسي: ماذا يعني الصراع؟ يعني العنف، التحطيم، الجلبة... ثم تساءلت: وماذا يعني المفتاح؟ مَن الذي أداره؟ هل الهدف عدم دخول الغرفة؟ ولكن وجود المفتاح في الداخل لم يمنع اقتحام الباب بسرعة، فهل يعني إبقاء أحد في الداخل أم إبقاء أحد في الخارج؟

وصمت بوارو برهة ثم استطرد قائلاً: وما معنى قطعة المطّاط؟ وقلتُ لنفسي إن قطعة من الإسفنج منزوعة من حقيبة لا تعني أيّ شيء، ولكن أمامنا ثلاثة حقائق هي الجلَبة والبُعد والغموض، فهل تتّفق هذه مع الشخصَين؟ لا؛ فكل من ألفريد وهيلدا يحتاج إلى الهدوء لتحقيق هدفه ولا حاجة به إلى إدارة المفتاح من الخارج ووضع قطعة المطّاط. ومع هذا كنتُ على ثقة من أن هذه الجريمة قد خُطّطت ونُفّذت بإحكام وتعقّل وأن كل الأدلّة التي تركها القاتل كانت عن عمد وبهدف مقصود. ثم لاح لي بصيص من الضوء وهو الدّم. لماذا

كل هذا القَدْر من الدّم؟ وقفزَت إلى ذهني فكرة جديدة، وهي أن هذه الجريمة جريمة دم وأن المقصود أن يغرق سيميون لي في بحر من دمه.

ومال بوارو بجسمه قليلاً إلى الأمام ثم استطرد قائلاً: أهمّ مفتاحين للكشف عن الجريمة نطَقَ بهما شخصان مختلفان دون وعي، فعندما قالت السيدة ألفريد: «مَن كان يظنّ أن العجوز ينزف كل هذا القَدْر من الدم؟»، والآخر هو رئيس الخدم تريسليان، فقد كان يظنّ أن بصره يخدعه وهو يرى نفس الأحداث تتكرّر دون أن يفطن إلى الشّبه الكبير بين هاري لي وستيفن فار. انظروا إلى صورة سيميون لي في شبابه وأنتم لا ترون هاري لي وحده بل ترون ستيفن فار أيضاً.

وتململ ستيفن فار في مقعده فقال بوارو بهدوء: تذكّروا ثورة سيميون لي وهو يتحدّث مع أفراد أسرته وقوله إنه واثق من وجود أبناء له ولو كانوا غير شرعيين. لقد كان سيميون لي ناجحاً في علاقاته مع النساء فحطّم قلب زوجته، ومن هنا جاءتني فكرة، وهي أن لسيميون لي ابناً غير شرعي من لحمه ودمه.

فقفز ستيفن فار واقفاً، ولكن بوارو استمرّ في حديثه قائلاً: كان هذا دافعك الرئيسي يا سيد فار، ولم تكن الفتاة هي التي أوحَت لك بالمجيء لأنك كنتَ عازماً على المجيء قبل أن تلتقي بها لترى أيّ نوع من الرجال

ينتمي إليه هذا الأب.

وحاكى وجه ستيفن وجوه الموتى وهو يقول: كنتُ أريد أن أرى هذا الأب الذي تتحدّث عنه أمّي، وعزمت على رؤيته بمجرّد مجيئي إلى إنكلترا فادّعيت أنني ابن شريكه السابق.

فقال المفتش بدهشة: يا إلهي! كم كنتُ أعمى!

ثم التفت نحو بيلار قائلاً: إذن فقد كان ستيفن هو الذي رأيتِه واقفاً أمام الباب، أليس كذلك؟ أذكر أنكِ تردّدت عند النظر إليه وقلت إنها كانت سيّدة.

فاندفعَت هيلدا تقول باضطراب: لقد كنتُ أنا التي رأتها بيلار.

فقال بوارو: هذا ما ظننته.

قالت هيلدا: لقد كنتُ مع ديفيد في غرفة الموسيقى، وكان يعزف في حالة نفسية غريبة فشعرتُ بالفزع واعتبرت نفسي مسؤولة عن مجيئنا، وعندما سمعت ديفيد يعزف اللحن الجنائزي قرّرت أن نرحل على الفور، فغادرت غرفة الموسيقى بهدوء وصعدت إلى الطابق العلوي لأقابل السيد لي العجوز وأخبره عن سبب رحيلنا، ثم طرقت الباب فلم أتلقَّ رداً، فطرقتُ الباب مرة أخرى دون جدوى. وحاولت أن أدير المقبض لكن الباب كان مغلَقاً فوقفت مترددة، ثم

سمعتُ صوتاً في الداخل. لقد كان أحدهم يهاجم السيد لي وسمعت أصوات الموائد والمقاعد تُقلَب والأواني الصينية تحطَّم، ثم سمعت صرخة أخيرة أعقبها الصمت فوقفت مشلولة، ثم أقبل السيد ستيفن مسرعاً وفي أعقابه ماغدولين والآخرون، ثم اقتحم ستيفن وهاري الباب، ولم يكن هناك أحدٌ في الداخل سوى السيد لي غارقاً في بركة من الدم.

وصمتت برهة ثم أردفت تقول بصوت أعلى: لم يكن هناك أحد بالداخل ولم يخرج أحد من الغرفة!

-٧-

تنهّد المفتش سادغن بعمق ثم قال: إمّا أنني في الطريق إلى الجنون أو أن الجميع أصيبوا به! ما ذكرتِه يا سيدة لي يُعتبر ضرباً من المستحيل!

فصاحت هيلدا قائلة: لقد سمعتُ الشّجار وسمعت صرخة العجوز ومع هذا لم يغادر الغرفة أحد.

فقال بوارو: ومع ذلك فقد التزمتِ الصمت. لماذا؟

وامتقع وجه هيلدا ولكنها قالت بثبات: لأنني لو أخبرتكم بذلك لقلتم إنني القاتلة.

فهزّ بوارو رأسه قائلاً: لا، أنتِ لم تقتليه... ابنه هو

الذي قتله.

فاندفع ستيفن فار قائلاً: أقسم أنني لم أقتله.

فقال بوارو: لست أنت القاتل، فله أبناء آخرون.

فصاح هاري معترضاً وحملق جورج في وجوم وغطى ديفيد عينيه، ولكن بوارو استأنف حديثه قائلاً: ينسى الإنسان أحياناً أن ضبّاط الشرطة بَشَر وأن لهم أزواجاً وأطفالاً وأمّهات و...

وتردّد بوارو برهة ثم أردف يقول: وآباء! تذكّروا سمعة سيميون لي، الشخص الذي حطّم قلب زوجته بسبب علاقاته مع النساء، وقد يرث ابنٌ غير شرعي طباعَ أبيه وكبرياءه وصبره حتى تحين الفرصة للانتقام.

ثم ارتفع صوت بوارو وهو يقول: لقد عشتَ طوال حياتك يا سادغن ناقماً على أبيك، وقد استقرّ رأيك على قتله منذ زمن طويل ولهذا جئتَ من تلك المقاطعة البعيدة إلى هنا. لقد استطاعَت أمّك بالمال الذي أغدقه عليها سيميون لي أن تعثر على زوج ليكون أباً لك، وكان من السهل عليك أن تلتحق بشرطة ميدل شاير وتنتظر الفرصة المواتية.

فقال سادغن باضطراب: لا شك أنك مجنون! لقد كنتُ في الخارج عند وقوع هذه الجريمة!

فردّ بوارو بهدوء: لقد قتلتَه قبل مغادرة القصر

في المرة الأولى، ولم يتّصل بك العجوز بشأن سرقة الماس ولكنك أنت الذي اتصلتَ به زاعماً وقوع السرقة واستبدال قطع الماس، ثم جئتَ للتحقّق من ذلك ففتح لك العجوز الخزانة ثم اعتذرت له. وبينما كان العجوز يسير نحو المدفأة انقضضت عليه فقطعتَ عنقه وأنت تكتم أنفاسه حتى لا يصرخ، ثم أخذتَ الماس وكوّمتَ قطع الأثاث والأواني الصينية والزجاج وربطتها بحبل رفيع كنتَ تلفّه حول وسطك، ثم أدليتَ بالطرف الخالي من فُرجة النافذة وغذّيتَ النار في المدفأة كي تساعد الحرارة على بقاء الجثة دافئة، وكانت معك زجاجة مملوءة بدم حيوان حديث الذّبح فسكبتَها على القتيل بالإضافة إلى الدم النازف منه، ثم خرجتَ تاركاً المفتاح من الداخل وأغلقتَه من الخارج حتى تضمن عدم دخول إنسان الحجرة، ثم خرجتَ ووضعتَ الماس في الحديقة حتى إذا تمّ العثور عليه اتّجهَت الشبهات نحو واحد من أفراد العائلة، ثم عُدتَ في نحو الثامنة والربع فجذبتَ طرف الحبل فانقلبت قطع الأثاث وتحطّمت الأواني الصينية والزجاجية، ثم جذبتَ الحبل ولففته حول وسطك مرة أخرى. ثم إنك استخدمت حيلة أخرى. هل تذكرون جميعاً كيف وصف كل منكم الصرخة التي سمعها؟ لقد قلتَ يا سيد لي إنها كانت صرخة محتضر يتألّم، واستخدم كل من زوجتك وديفيد لي نفس التعبير «روح تتعذّب في الجحيم». وقالت السيدة ديفيد عكس ذلك حيث قالت إنها صرخة إنسان لا روح له أو إنها

ليست صرخة بشرية، أمّا هاري فقد كان الأقرب إلى الحقيقة عندما قال إن الصوت يشبه صرخة خنزير عند الذّبح.

وتوقّف بوارو عن الكلام قليلاً ثم أكمل حديثه قائلاً: هل تعرفون البالونات الطويلة التي تُباع في الأسواق وقد رُسِمت عليها صور وجوه ملوّنة وتُسمّى الخنازير المحتضَرة؟ تلك البالونات عندما يندفع منها الهواء خارجاً تنطلق منها صرخة غير آدمية، وكانت تلك هي اللمسة الأخيرة التي ابتدعتَها يا سادغن حيث وضعتَ في الغرفة واحدة من تلك البالونات وسددت فوّهتها بالوتد الذي ربطته بالحبل، وعندما جذبت الحبل خرج الوتد وانطلق الصوت الذي يشبه الصّرخة في الوقت الذي انقلبَت فيه قطع الأثاث.

ثم التفت بوارو نحو المجتمعين قائلاً: هل عرفتم الآن ما التقطَته بيلار من الأرض؟ لقد كان المفتّش يأمل أن يلتقط قطعة المطّاط قبل غيره، ولكنه استردّها على الفور من بيلار بصفته الرسمية ولم يذكر الواقعة لأحد حتى سمعتُها من ماغدولين. وكنتَ مستعدّاً لهذا الاحتمال فقطعتَ قطعة من حقيبة السيد سيميون لي وأعطيتني إيّاها مع الوتد الخشبي، ولم يكن لتلك القطعة أيّ معنى حتى انفجر البالون الذي كانت تلهو به الآنسة بيلار وقالت إنه يشبه قطعة المطّاط التي عثرَت عليها في غرفة العجوز. ومنذ تلك اللحظة أصبحَت بيلار مصدر

خطر على القاتل فقرّر التخلّص منها في أول فرصة، فكانت فكرتكَ في قتلها بواسطة الكُرَة الحجرية، ولكن المصادفة وحدها تدخّلَت لتمنع وقوع الجريمة الثانية.

وخيّم الصمت برهة ثم قال سادغن بهدوء: منذ متى تأكّدتَ من صدق نظريتك؟

فقال بوارو بهدوء: لم أكن متأكّداً حتى اشتريتُ شارباً مستعاراً ووضعتُه على صورة سيميون لي، وعندئذ كان الوجه الذي طالعني هو وجهك.

فقال سادغن بانفعال: فلتذهب روحه إلى الجحيم! أنا سعيد لأنني تخلّصتُ منه!

* * *

الفصل السابع
٨٢ كانون الأول (ديسمبر)

-١-

قالت ليديا: بيلار، أعتقد أنه من الأفضل لكِ البقاء معنا حتى نرتّب لك شيئاً من المال.

وقالت بيلار بخضوع: أنتِ بالغة الطيبة يا ليديا. أنا لست ابنة جنيفر لي، فاسمي الحقيقي كونشيتا لوبيز.

فقالت ليديا: اسم كونشيتا جميل أيضاً.

- لستِ في حاجة إلى القلق بشأني؛ فسوف أتزوّج ستيفن وأذهَب معه إلى جنوب إفريقيا.

قالت ليديا باسمة: هذا يجعل الأمور تسير سيراً طيّباً.

قالت بيلار بتردّد: هل تعتقدين أنه بوسعنا المجيء في المستقبل لنقضي معكم أحد أعياد الميلاد؟

فأجابت ليديا: سوف يكون ذلك من دواعي سرورنا.

-٢-

قال هاري: حسناً، وداعاً يا ألفريد. لا تقلق فأنا راحل ولن تراني أبداً، سأذهب إلى هاواي حيث كنتُ أتمنّى أن أعيش عندما أحصل على قَدْر معقول من المال.

فقال ألفريد: وداعاً يا هاري، وأتمنى لك أن تستمتع بحياتك.

- وهذا ما أتمناه لك.

ثم أكمل هاري متردّداً: أنا آسف لما سبّبته لك أيها العجوز من متاعب.

فقال ألفريد بعد جهد: سوف أتعلّم كيف أتقبّل المزاح!

فقال هاري بارتياح: حسناً، إلى الملتقى.

-٣-

قال ألفريد: ديفيد، لقد قرّرتُ أنا وليديا أن نبيع هذا القصر، ولكننا سنترك لك متعلّقات أمّك.

فتردّد ديفيد برهة ثم قال: شكراً لك، ولكنني

لا أريد أن أحتفظ بشيء من هذا البيت. أعتقد أنه من الأفضل لي أن أنسى الماضي برُمّته.

فقال ألفريد: أجل، أنا أقدّر مشاعرك، وربما كنتَ على حق.

-٤-

قال جورج: حسناً، وداعاً يا ألفريد، وداعاً يا ليديا. يا له من وقت عصيب ذلك الذي مررنا به! تبقى أمامنا المحاكمة، وسوف تُنشَر قصة سادغن الابن غير الشرعي لأبي على الملأ، ولكن أليس من الأفضل أن يخترع قصّة أخرى كأن يكون شيوعياً متطرّفاً وأنه كان يكره آراء أبيه الرأسمالي؟

فقالت ليديا: وهل تعتقد أن شخصاً مثل سادغن يقبل أن يقول الأكاذيب؟

* * *

(تمت)